10 me Année No. 444

Lundi - 5 - 1 - 1942

الرسالة

مجلة أسبوعية تعنى بالأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٤٤٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٥ يناير سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهـــرس

صفحة		
١	الرسالة فى عامها العاشر ...	أحمد حسن الزيات ... ...
٣	أحلام العام الجديد	الدكتور زكى مبارك ... ...
٦	ظاهرات نفسية فى مسرحيات محمود تيمور	الأستاذ زكى طليمات ... ...
٩	التبعة والعقوبة فى المجتمع البشرى القديم	الأستاذ رفعة الحنبلى ...
١٣	أنطون تشيكوف الكاتب الروسى العالمى	الأستاذ خليل هنداوي ...
١٧	فى الخبأ	الأستاذ محمد محمود دوارة ...
٢٠	المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم	للمستشرق إدورد وليم لين بقلم الأستاذ عدلى طاهر نور
٢٣	برقـــة ... ... [قصيدة]	الأستاذ عبد اللطيف النشار
٢٤	الرسالة فى عيدها العاشر »	الأستاذ أحمد أحمد الجمى
٢٥	ليلة عيد الميلاد ... [قصة]	الكاتب الانجليزى «نيودورجو» بقلم الأستاذ كامل يوسف ...

الرسالة

فى عامها العاشر

بسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر ؛ وبغير اسم الله نور السموات والأرض لا يهتدى فى هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر . والظلام فى هذا الكوكب طبيعة أصيلة ؛ فأناره الله بالشمس والقمر والدين ؛ وأنارناه نحن بالزيت والكهرباء والعلم ، حتى أوشك أن ينجاب الحلك الناشئ عن آفاقه وأخلاقه ؛ ولكن سلائل الطين لا تستضىء ببصائرهم وسرائرهم بغير الدين ؛ فإذا أطفأوه فى قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل ! وإذا العالم دمار وهلك ! وتلك هي الحال التى يكابدها الناس اليوم : ظلام فى بلاد الأرض ، وظلام فى نفوس الناس ، وظلام فى وجوه المستقبل ! فمن يخرج يده لا يكد يراها ، ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به ! ومن ينظر فى صفحة الغد عميت عليه ! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !

* * *

الظلام ! الظلام ! الظلام ! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة فى كل أمة من أمم الشرق والغرب اليوم ! فليت شعرى هل

تأله البشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية[1]؟

غشينا ظلام الغرب ولفنا ليله الأليل ؛ فكأنما انطفأت في مشرقنا عين الشمس ! وما كان المغرب منذ دحا الله الأرض إلا مبعث ظلمة ؛ وما كان الشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور . فإذا دجت الآفاق واستشرت المآلم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شعاعه ولم يبلغ رسالته !

والحق أن منازل الوحي من الطور والجليل وحراء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلهية لغير قابل . كان لها في نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدي بها وتدعو إليها ؛ فلما ختمت النبوة وانقطع الوحي ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كورثاء الملك أو المال ، منهم القاعد المضيع ، ومنهم الجاهد الكاسب . ولو شاء ربك أن يدرك النصر أولياؤه ، ويطبق الأرض دينه ، لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم !

لا تزال منازل الوحي ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق ؛ ولكن الله الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز ، وأسرفت عليهم المطامع ، وتفرقت بهم المذاهب ، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى

وكان الظن بالأزهر الذي قام للدين ، وعاش بالدين ، أن يكون لأمواج الوحي الخالد محطة استقبال وإذاعة ؛ ولكنه انقطع عن ركب الحياة فخضع لعوادي الدهر القاهر ، خضوع القلعة المحصورة للمغير القادر !

على أن هذه الحرب العالمية هي كما قلنا القيامة الصغرى ؛ ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخلق الجديد والحياة الفضلى . والواقع في الظن أن الأزهر يعهد لهذا الانبعاث ، ويهيء لهذه الحياة . وما هذه الروح التي دبت في (جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحات الربيع الأولى يرسلها النيروز لتجري الماء في الأعواد ، وتوقظ الحياة في البراعم

* * *

لعلك تقول لنفسك : ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر في معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر في رأي أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ؟

وقولي فيما تقول أن الشرق لا ينهض إلا بالدين ، وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر . ولست أقصد بالدين هذا الدين الذي يعتقده المسلم المعاصر ، ولا بالأزهر هذا الأزهر الذي تراه في نظامه الحاضر ؛ إنما الدين الذي أعنيه هو دين القرن الأول ، والأزهر الذي أبغيه هو أزهر القرن الرابع عشر . أريد الدين الذي قوى الذي فتح الممالك ، ومدن الأمم ، وكرم الإنسان ، واحترم العقل ، وفرض المعرفة ؛ أما هذا الدين الذي يقول بعبادة الأولياء ، وتعجيد القبور ، وتقديس القديم ، وإيثار التواكل ، ومخادعة الله بالحيل ، ومهاواة القادة بالنفاق ، فليس دين الله ؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع الأتباع الذين ضلوا وذلوا فرقتهم الأحداث ، وأكلتهم المطامع ، وأصبحوا شيعاً تتقاتل عليه الدول ويعتدل بتقسيمه التوازن

وأريد الأزهر الجديد الذي يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين ، يقوى بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ؛ ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، وتقتضيه الحاجة ؛ أما هذا الأزهر الذي يشغله الكلام ، ويجره الماضي ، وبقتات الفتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، فهو مسجد من المساجد الأثرية لا أقل ولا أكثر

* * *

أما بعد ، فقد عودتك يا قارئي العزيز أن أتحدث إليك في مطلع كل عام عن بلاء الرسالة في الجهاد وعملها في المستقبل ؛ وإنك لتعلم أن هذا الظلام الشامل الكثيف الذي ضرب على أبواب الشد حجباً فوق حجب ، يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الكلام وعبث الأماني . فنسأل الله أن يتولانا في هذه الأزمة العامة برحمته وفضله !

احمد حسن الزيات

(١) المانوية مذهب مانى ، وهو رجل ولد في فارس حوالى سنة ٢٢٤م ، وكان يقول بأن العالم تتولاه قوتان متضادتان : قوة من طبيعتها الخير وهي الله أو الروح أو النور ، وقوة من طبيعتها الشر ، وهي الشيطان أو المادة أو الظلام ، وقال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب

أحلام العام الجديد

للدكتور زكي مبارك

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية « استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف » ، فتوكل على الله وقرر أن « الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء ؛ أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملاً ، مقسطاً أو غير مقسط » . وبهذا ظهر « امتياز » الصديق القديم على الصديق الجديد !

والتفتُّ فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية ، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع موادّ الطباعة ، بعد أن أرجأت النظر في طبع مؤلفاتي الجديدة إلى أن تنتهي الحرب ؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف

وما ظنُّكم بزمان لا يبرع شعراؤه في غير الحديث عن « الرغيف » ، كالذي ترون من يوم إلى يوم في بعض الجرائد والمجلات ؟

ما ظنُّكم بزمان يعدّ فيه الحديث عن أحلام الفلوب ضرباً من الفضول ؟

إن هذه المحنة الماثلة هي الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية ، فبها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان

أيكون الكلام عن « الرغيف » تودداً إلى أهل البطون ، وهم ألوف أو ملايين ؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهي تسمو على الحاجيات اليومية ؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يهتبلها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء ؟

إن كان ذلك فأين تصوّن الأديب عن الكلام المبذول ؟

سمعت — بل علمت — أن مدرساً في « قنا » أرسل إلى جريدة تلك بمقالة يشكو فيها انعدام الرغيف ، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ ؟ وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهي ميدان حرب ، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون ؟

وإذا استجاز « المدرس » أن ينظم القصائد الطوال في الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس ، فماذا يصنع « الفلاح » أو « الصانع » وهما شخصيتان تعتمدان في القوت على الرغيف ؟

لعل الأيام أرادت أن تعلمني ما كنت أجهل ، فقد طال مني التجني على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من رقبة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة في العصور الخوالي ؟

ولعل الأيام أرادت أن تقنعني بأني صرت من الحكماء من حيث لا أعرف ، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال ، واكتفيت بما تيسر من الخضروات ، بغض النظر عن اللحم الذي سمّاه باسم النقد الأدبي ، وهو لحم غاب اسمه عن « دولة الحاكم العسكري » فلم يفرض على من يتناشه أي عقاب !!!

ما تهمني أزمة الرغيف ، وإنما تهمني أزمة القلب

ولو كان في وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف ، لأن القلب هو الأساس في فهم أخطار الوجود

الظبية تجتزئ بالعشب فتستغني عن الماء ، ومن أجل هذا سُمّيت جازية ، و « جازية » اسم من أسماء الملاح في هذه البلاد وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنى ملفوف

فإذا فقدت الظبية العشب ، فكيف تعيش وبه غنيت عن الماء ؟

لن أنسى أبداً سخرية « فاجيه » من « أفلاطون » ، وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسي ، ومن سيرته تعلمت أشياء هي الهادي والدليل في حياتي الأدبية ، فأنا أسجل كل ما يعتلج في صدري قبل أن يضيع ، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء ، بلا تقيد بالمكان والزمان !

وفي هذه المرة أكون أعظم من أستاذي فاجيه ، فقد سخر من تسامي الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون . أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس

نحن ، رجال القلم ، أعرف خلق الله بما يتفجر في الصدور من آلام وآمال

كانت الحكومة إلى رجال يعيشون فى حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل : فلا يعرفون ما يعانى الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب ...

ولم نكن كأولئك ، فنحن قوم نعيش الشعب وفى صحبة الشعب ، ولنا فيه أصحاب وأخوال ، ولن تجنى عليه بأى حال

ونحن مع هذا معرّضون لدسائس سود ، ومن الواجب أن نبدّد تلك الدسائس ، بلا تسويف ، تمهيداً للوزارة التى سؤلفها فى العام الجديد .

قيل إن الزيات معاند فى الأسلوب ، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء ؛ وأقول إن هذه النزعة تنفع فى المزاوجة بين الطبقات والأحزاب ، حين يمسى الزيات وهو رئيس الوزراء

وقيل إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب فى الآفاق الفكرية ، وأقول إنه أصلح الأدباء لتولى وزارة الخارجية .

وقيل إن أحمد أمين لا يجيد الكلام فى غير البحث المطروق ، وأقول إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات ، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب .

وقيل إن المازنى أول أديب حجّ بيت الله فى غير موسم الحج ، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر فى الحجاز ، وإن قال فى صلاة « زكى باشا » ما قال .

وقيل إن توفيق الحكيم يقدس « السيدة زينب » فهو إذن وزير الأوقاف .

وقيل إن طه حسين لم يُجد فى « هامش السيرة » غير الحديث عن « الراهب » فهو إذن وزيرنا فى بلاد النجاشى .

وقيل إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا فى وصف الطبقات الشعبية ، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية .

ولا موجب للحديث عن الأدباء النَّدَرَة من أمثال : عبد القوى أحمد ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق ؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ !

بقى مكانى فى الوزارة المنشودة ، فما عسى أن يكون ؟

هل أختار وزارة المعارف ؟

وكيف وهى وزارة متعبة ، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المعنى على الشوك ؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخلَف ما بنى السلف ، وأنا أكره التقلبات الكثيرة ، وأبغض التخبيج المفصّل ، والصياح المصنوع .

يضاف إلى ذلك أنى نشرت مقالات تفوق العدّ والإحصاء فى شؤون التربية والتعليم ، ومن الجائز أن يطالبنى الجمهور بتحقيق ما اقترحت فى تلك المقالات ، وهنالك الخطر كل الخطر ، إلا أن أروض نفسى منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات !

هل أختار وزارة الداخلية ؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب ، ويثور على الاحتكار والمحتكرين .

إن توليت وزارة الداخلية — وهذا أمر قريب — فسأفرض على رجال الحكومة فى مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس ، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات ، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشاً يمزق الشرائم الباغية على الأمن والنظام ، وهل يهدّد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات ؟

لن أنتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين ، وإرشاد المرشدين ، فقد ظهر أن فى الدنيا قلوباً لا يقوّمها وعظ ولا إرشاد . لن أنتظر غير حكم العدل ، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة فى زوايا البيوت ، بيوت الأغنياء والفقراء ، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون فى الفقر تزوير وافتعال « ولم يكن المصريون كذلك فى الأيام الخالية ، فقد كانوا يستترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين »

إن توليت وزارة الداخلية — ويجب أن أتولاها — فسأحرم العمد نعمة الثروة فوق المصاطب ، وسأحولهم إلى جنود نافعين ، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شىء ، ولكنهم يكتمون ما يعلمون ، فإن طووا عنى ما يجب أن أعرف فسأقضى فيهم بالعدل ، وهم يفهمون جيداً خطر العدل .

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات فى مثل هذه البلاد ؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعى إلى الجهاد ؟

العب فى أمثال هذه الأيام لا يليق ، ومن العب القبيح أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع .

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه حتى يوم أتولى وزارة

الداخلية ، فسيقول السفهاء من الناس إني خليفة الحجاج ، وسيتخذون من شراستي دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوي على جحيم من الطغيان المكبوت .

وما خوفي من القال والقيل وأنا في غنى عن رضا الناس ، ولن أتقدم يوماً لخوض معركة انتخابية ؟

إن رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة في السنين العجاف . وهل يشقى أحدٌ في سبيل الأمة كما نشقى ؟ وهل يعرف أحدٌ من متاعب الأمة بعض ما نعرف ؟

الوزراء في الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا في أندر الأحيان، لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين ، وفي الناخبين خلائق لا تعطي أصواتها إلا لغاية معلومة ، هي السكوت عن آثامها الثقال

ولن أكون وزيراً برلمانيًا يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدِم على إعزاز شريعة العدل

سأكون بإذن الله وزيراً يختار لغرض واضح صريح : هو القضاء على البغي والفساد ، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات

وقد فكرت في مصير البرلمان الحاضر ، وهو برلمان طال حوله الخلاف ، ثم صح الرأي على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى حين ، فما يتسع وقتي للنظر في شؤون تضر أكثر مما تنفع . وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد ؟ — « إنما أسأل أمام ضميري لا أمام البرلمان »

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف ، فإن تكون هناك أغلبية وأقلية ، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء

لن يقول النحاس باشا : « أنا أول من أنذر بأزمة التموين » فأسوقه سوقاً إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس

ولن يقول الدكتور ماهر باشا : « أنا أول من تأهب للحرب » ؛ فأجره جراً إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء !

سأغير من أخلاق الناس ، إن دُعيت إلى ولاية الحكم في هذه الأيام ، وليس ذلك بالأمر البعيد ، فقد جُرِّبتْ جميع القُوى السياسية ، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية ، وهي أقوى من الزمان

أما بعد فهذا حُلمٌ من أحلام العام الجديد ، ولكل عام أحلام هو لفتة روحية ستؤتي ثمارها بعد حين ، فمن الشر المربق أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إقرار العدل ، وما كانوا في الحاضر والماضي إلا موازين

دعونا كم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا ؛ ونهينا كم ألف مرة عن تنامي السلطة الأدبية فلم تنتهوا . فهل جازينا كم صداً بصد ، وإغضاءً بإغضاء ؟

لا ، والله ، وإنما مضينا على السجية الكريمة ، فأودعنا في صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخي ، فما كان في الأمة من خير فهو من صُنع أقلامنا ، وما كان في الأمة من شر فهو من جناية الراغبين في السيطرة والاستعلاء

لن تصلُح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ

ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض

أتريدون الدليل ؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب ، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد

وأنتم تضفون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب ، وقد تسندون بعض المناصب إلى من لا يُزكيه غير رضاكم عن أسلوبه في حفلات الاستقبال

الأدباء هم أقدر الرجال في مصر على عصيان الأهواء

ألا ترون كيف نحارب منافسنا في سبيل النزاهة الأدبية ؟

نحن نساول الأحزاب والهيئات في كل يوم لترفع قدر الفكر والرأي ، ونرحب بجميع المتاعب في سبيل تلك الغاية العالية ، فأين من يصنع بعض الذي نصنع ؟ وأين الذي يعاني في سبيل المبادئ السامية بعض ما نعاني ؟

لو سخرنا أقلامنا في سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق في وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت ، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون

إلى أقلامنا يرجع الرأي في سياسة هذه البلاد ، وإن بعُدنا صورياً عن المناصب الوزارية والبرلمانية ... لكل وطن روح ، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ

زكي مبارك

ظاهرات نفسية

٢ ـ في مسرحيات محمود تيمور

للأستاذ زكي طليمات

مفتش شئون التمثيل

سبق أن قررت في مقالي السابق[1] عن مسرحيات تيمور أن القيمة الأدبية الحقة للعمل الأدبي ، مسرحية كان أو قصة ، رهينة بما يسجله من الحقائق الإنسانية الخالدة التي تسمو على مشكلات الاجتماع ، ومسائل الإصلاح الموقوت ، وأزياء الأساليب البيانية ، وتتجاوزها إلى ما هو أعرق في الإصالة وأجدر بالمعالجة ، ألا وهو النفس البشرية بكامل كيانها ، فيكون همُّ الكاتب قبل كل شيء ، تسجيل سماتها والكشف عن مظاهرها ومضمراتها . ومن أجل هذا جعلت نقدي للمسرحية الأولى من مسرحيات تيمور ، ألا وهي (المملوك) ، معنى بهذه الناحية ومجاوزت قصداً عما سواها ؛ وسيكون هذا دأبي في نقد المسرحيتين الأخريين ، وهما (أبو شوشة) و (الموكب) وعلى أساس أن كياننا النفسي الكامل يتألف من العقل الظاهر (الوعي) ومن العقل الباطن (اللاوعي) ، وإننا في تصرفاتنا خاضعون إلى التيارات الخفية التي تنطلق من معقل الوعي الباطن فتدفعنا إلى إتيان بادرات ، لا يستطيع عقلنا الظاهر تفسيرها[2]

النقد تفسير وتبيين وتسجيل

إن مهمة الناقد وقد أخذ بما أسلفناه شاقة عسيرة ، ولكنها بجدية القارئ ُ قبل كل شيء ، إذ أنها تقدم له في بيان واضح وسرد مستفيض غير معقد بأوضاع وقيم فنية مرسومة ، تقدم إليه سمات هذه الشخصيات التي نلحظها في تعقيدها النفسي مضطربة مقنعة ، بعد أن يكون الناقد قد استخرجها من بين السطور ، وقيد أوابدها ، وتصيد شواردها ، وحلل نزعاتها ، وأسقط أقنعتها

ورب معترض يقول : وما هذا اللون من الأدب أو المسرحية الذي يحتاج إلى تفسير وتعليق وتذييل يجلو الغموض ويبدد الأبهام ؟ ولم كل هذا التعليق من جانب الناقد ! ؟

وجوابنا : أن لا غموض ولا إبهام تلحظه العين في عمل أدبي حق ، لو أن كل قارئ ٍ كان ساميا في ثقافته إلى المستوى الذهني الذي أصدر عنه الكاتب أو الشاعر عمله الأدبي الرفيع ، وصدق القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وإن النقد كما أنه تنبيه منزه عن السقوط إلى ما يتضمنه العمل الأدبي من مفاتن ومقابح ، فهو تفسير وإيضاح لما يسجله المؤلف مجملاً أو مركزاً ، وقد تقيد بقيود الوضع الشكلي الذي تفرضه صياغة القصيد أو القصة أو المسرحية ، وأخذ بأسباب شرائط فنية قد توجب الإغراب قصداً ، وقد تحتم التلويح بدلاً من التصريح في مواقف ، والعكس بالعكس في مواقف أخرى ، وقد تقضي بالإيجاز الذي يضني القارئ ُ في ناحية ، لتهبك مرة أخرى في تنقل وثبي جريء ٌ ، تدفعه من فكرة إلى فكرة ، ومن خيال إلى خيال ، من غير تمهيد يستطيع كل قارئ ٍ معه أن يجد الرابطة بين كل هذا

وهناك شيء آخر جدير بالاعتبار يتصل بالمؤلف نفسه مباشرة ، وذلك أن النقد إذا صح أنه إيضاح وتبيين فوق تبيين ، ييسر لكل قارئ ٍ استبطان دخائل العمل الأدبي الذي يقرؤه ، ويبصره بمواطن الفتنة والسمو والقبح والإسفاف فيه ، فهو أيضاً تسجيل وتحليل لطرائق المؤلف واتجاهاته في الأسلوب والصياغة والفكر ؛ وهو أيضاً تقدير لمبلغ توفيقه في كل هذا ، لأن المؤلف الموهوب قد يصدر كثيراً فيما يكتب عن وحي الساعة وقد لبسته حال من اللاوعي ، فهو لا يخضع كل سانحاته وطوارقه الذهنية إلى مقاييس الفن ومعايير البيان . إنه يرتجل أحياناً وهو يدري ولا يدري بعد أن تهيأت نفسه للخلق والابداع ، وفي تسجيل هذا من جانب الناقد تبصير جديد للقارئ ِ وإقرار صحيح لمنازل الكتاب من حيث القيم الأدبية الفنية

وفيما نحن بصدده في مسرحيات تيمور ـ وقد نحا في التأليف والتحليل النفسي نحواً يقضي بتسجيل النتائج والأعمال التي يأتيها أبطال مسرحياته من غير أن يعنى بتبيين البواعث والدوافع ، وذلك باعتبار أنها أعمال تبدر من العقل الباطن ولا يستطيع العقل الظاهر تعليلها وتفسيرها ـ لا مناص من أن تكون مهمتنا الأولى إيضاح هذه البواعث التي أدت إلى النتائج ، ولا يخفى أن

(١) عدد « الرسالة » رقم ٤٤٠ المؤرخ في ٨ ديسمبر

(٢) عدد « الرسالة » رقم ٤٣٩ المؤرخ في أول ديسمبر

أعمال الناس تفسر بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات .

والآن فلنتقدم إلى مسرحية (أبي شوشة)

أبو شوشة

اسم لمجل مدلل ، يرعاه (مؤنس بك) في ضيعته (كفر البلابل) ، ومن العجيب أن يكون عنواناً لمسرحية اسم مجل يخور ولا يند لسانه بحوار في المسرحية ولا ترى له وجهاً على المسرح، ولكن من يدقق قراءة هذه المسرحية لا يلبث أن يصل إلى ما توخاه المؤلف من هذا العنوان ، بعد أن يتضح له أن (أبا شوشة) ليس إلا رمزاً للحاضر الجاثم بكيانه القادر بظروفه وشواغله . (والحاضر) في هذه المسرحية عنصر هام وخطير

ترك مؤنس بك ماضيه في القاهرة منذ ست سنوات وهاجر إلى الريف وتزوج من حرائر أعيانه . له من زوجته رفيق مؤنس ، وله من توفره على الزراعة ومنتجاتها شغل وعزاء . تراه أول ما تراه في المسرحية ، محنقاً مكروباً ، لأن المجل (أبا شوشه) متوعك المزاج يعاف أكل العليق وعينه محمرة دامعة !! القصر الريفي في حيرة واضطراب ، الخدم يرقبون شفاء المجل العزيز الغالي لتعاود غبطة المزاج السيد المكروب الذي أرصد المجل السيد خادماً يسهر على راحته

فجأة يهبط القصر نفر من الزوار من أعيان الريف ، بينهم حسنية هانم وزوجها (ظاظا بك) — وهما من سكان القاهرة — جاءا الضيعة لزيارتها بعد أن ذاع صيت نظامها ووفرة غلتها في دوائر القاهرة . فترى مؤنس بك يضطرب ويرتبك لمرأى (حسنية) وكأنه فوجئ بمجيئها ، ولكنه يتغلب على ارتباكه ويرحب بالزائرين

وإذ يخلو لمؤنس وحسنية المكان بعد تمهيد دق المؤلف في إتيان مواقفه من غير تكلف ، تراهما منجذبين الواحد نحو الآخر ، متقابلين فما لثم ، وسرعان ما ينجلي للقارئ أسباب ارتباك مؤنس واضطرابه . . . لقد كان مؤنس وحسنية متحابين ، متعاقدين على الزواج قبل أن يهجر مؤنس القاهرة ويقيم بيته وأعماله في الريف . ولكن حدث إذ ذاك أن توفي والده وطالعته تركة مورثه مرهقة بالدين تتدحرج نحو الإفلاس والبوار ؛ فأسقط في يده ، وخابت أمانيه في الزواج ، لأن كبرياءه حجزته من أن يتزوج من حسنية الناعمة المثرية . فترك القاهرة بغتة واستقر في الريف يرمم المنهار من تركته بعد أن قطع كل رابط يربطه بالقاهرة وساكنيها . وكان أن تزوجت حسنية من ظاظا بك

هذا المشهد هو دعامة المسرحية وبيت القصيد فيها . . .

ها هما الإثنان يستبان الماضي وذكرياته ، وها هو مؤنس يشد على يد حسنية في انعقاد ، مهيباً بها أن تنسى الحاضر وأن ترجع بين الخيال إلى مراتع حبهما ، فتزداد التصاقاً به ، وتدنى فمها من فمه ، مغمغمة اسمه المحبوب ، القبلة تكاد تتم فصولاً ، الحب الهامد ينتعش من جديد و . . . .

ولكن يحدث في هذه اللحظة أن يرتفع خوار المجل أبي شوشة ؛ فإذا بمؤنس يجمد في مكانه ، وإذا بالقبلة لا تتم ، وإذا به يترك حسنية واجمة متعجبة ، ويطل من النافذة منادياً متسائلاً عن صحة المجل العزيز الغالي !!

بادرة عجيبة ولا شك من جانب مؤنس تناقض الواقع الذي كان يعيش فيه منذ لحظة ببيان لسانه وكمال وعيه !

ويستدرك مؤنس ما أتاه من غير وعي بهذه البادرة الثانية فيعاود الحديث عن الماضي ويستعين عليه في هذه المرة بمطالعة بعض صور فتوغرافية قديمة تمثله مع حسنية في مواقف عديدة . ويبدو للقارئ أن مؤنس يحاول لاهثاً أن يستمد من هذه الصور إنقاذاً لمهلته ويقظة لحسه . وتقع يد حسنية بين هذه الصور على رسم المجل أبي شوشة فتتبرم ؛ ثم لا تلبث أن تزداد عجباً على عجب ، إذ ترى مؤنس يأخذ بأسباب سرد مشرق من ولادة المجل وحياته الأولى

وهكذا يبدو مؤنس متطوحاً بين (الماضي) الذي يشده بعنق حسنية ، وبين (الحاضر) الذي يجتذبه بحوار أبي شوشة

ولا تجد حسنية موضوعاً لحديث غير الكلام عن الطقس .

ويفطن مؤنس إلى ذلك فيعتصر حمه من جديد ويأخذ في إطراء مفاتن حسنية ، فينشط حس المرأة أمام هذا الإطراء فلا تتوانى عن أن تعرض عليه أن يحضر الحفلة التي ستقيمها في القاهرة بمناسبة عيد ميلادها ، ولا تتحرج عن أن تناشده معاودة حياته الأولى في ظل حبها

مؤنس يتقاد إلى حديثها في شبه حلم لذيذ وقد غمره الماضي ، فلا تلبث أن تسمعه متبرماً بحاضره . وها هو أخيراً يقرر في غير صوت متقد أنه سيعود إلى القاهرة ، وأنه سيحضر حفلة عيد ميلادها . . . وأن الإنسان في وسعه أن يحقق ما يريد إذا صح عزمه على ذلك

وإذ هما يحتضنان ، يرن صوت الخادم وقد أقبل نحوهما . . . الخادم يدخل فرحاً معلناً أن « أبا شوشه » أكل عليقه ، وأن الصحة عاودته . . .

يا لسخرية الحاضر من الماضي ! !

ترى مؤنس ينتفض فجأة وكأنه خرج من حلم بعيد وينطلق نحو الباب والفرحة ترقص أمامه ، ويدعو حسنية إلى أن ترافقه إلى مذود العجل ؛ ولكنها ترفض فيتركها وقد نسى القاهرة وحفلة العيد ! !

هذا المشهد هو الرواية كلها ، وقد وفق تيمور في التمهيد لانطلاق الإيحاءات الباطنة التي كانت تطرق مؤنس وتجعله وهو لا يدري ينقض ما يبرمه وهو يدري . وفق تيمور في هذا بطريق إيرادها جملات نفسية خاطفة كانت تلوح للأمر المزمع ، والغاية المقصودة

وتجري بعد هذا المشهد الحافل مشاهد إضافية ، ترى (حسنية) في أحدها تعلن لمن جاءوا للضيعة معها أن (مؤنس) سيحضر حفلة عيد ميلادها بالقاهرة ؛ ولكن سرعان ما يحضر مؤنس وقد امتلأت نفسه نشاطاً وفاضت غبطة ليعلن الحضور بدوره أنه سيشترك في المعرض الإقليمي بمنتجاته الزراعية ، وكان قبل ذلك متردداً في هذا الاشتراك . تقتضب (حسنية) وتقطع الحديث وهي تقترح العودة إلى القاهرة ، لأن لديها ما يشغلها لإعداد حفلة عيد ميلادها . وإذ ذاك يتذكر (مؤنس) أمر هذه الحفلة ، ويبدي حيرته كيف يوفق بين الاشتراك في المعرض وحضور حفلة القاهرة . . . ولكن (حسنية) تتدخل في الأمر تدخلاً عابراً من باب جبر الخاطر — وأغلب الظن أنها بدورها أحست فتوراً من الرجوع إلى شيء مضى وفات — ويعتذر مؤنس عن حضورة الحفلة وكأنه أنقذ من ورطة قادمة !

وتنتهي المسرحية بأن ترحل (حسنية) إلى القاهرة لتعيش هناك في (حاضرها) ، ويبقى (مؤنس) في قصره الريفي ليعيش بدوره في (حاضره) .

كل هذا يجري ولم نر المؤلف يجعل بطلي المسرحية (مؤنس وحسنية) يحاولان تعليل تلك الإيحاءات الباطنة وتفسيرها بطريق المنطق ، بل جعلها تعرض نفسها خطفاً ، وبهذا خالف النهج الذي نهجه في مسرحيته الأولى (الصعلوك) وحسناً فعل .

* * *

والآن نتساءل ما الذي يلبس هذا الرجل (مؤنس بك) الفينة بعد الفينة ، والموقف واحد لم يتبدل زمانه ومكانه ، فتراه يتخبط وينقض فعلاً ما أبرمه كلاماً ويتأرجح بين قوتين عنيفتين تشده كل منهما من ذراع لتجتذبه إحداهما في النهاية ! !

ألا يرى القارئ معي أن هذا الرجل يحاول عبثاً إرجاع الماضي وبعثه بمذكيات الذكرى ويحطام نفسه وبشخص المرأة التي كانت له شريكة فيه ؟ ! وأن الحاضر يأبى عليه ذلك ويصر على شرعته الأزلية من أن ما فات مات ، وأن لا رجعة لما أغرقه الزمن في لجته ؟ !

نعم هو هـذا . وأن الذي كان يلبس الرجل ويدفعه بقوة خفية إلى التناقض إنما هو سيطرة الحاضر الذي أقام لنفسه في الواعية الباطنة سلطاناً يدفع به وثبة الماضي إذا قدر له أن يستفيق من هدته وتهيأ للانسراح بعد انكماشه ، والماضي بدوره له في الواعية الباطنة منازل ينطوي فيها على نفسه ولكنه يقنع من السلطان بأن يكون معين الصراع بين المادة والحافظة ، وأن يكون الشرفة التي نطل منها على المستقبل .

لا سبيل إلى إحياء الماضي ، تلك هي المسألة التي أثارها تيمور في مسرحيته — الماضي لا يعود — ومرد هذا أن النظرة إلى الأشياء تتغير بتغير الميول ، والميول تبدل أثوابها بمرور الزمن ، الزمن الذي يبلى كل شيء ويصير دائماً إلى الأمام دون أن ينظر إلى الوراء ، الزمن الذي يستبد فينا بحاضره ، ويدفعنا بشواغله والتزاماته إلى أن نحيا فيه . فكأن النظرة إلى الأشياء مقضي عليها بالتغير ، ومتى تغيرت النظرة تغيرت معها معالم الدنيا من إنسان وجماد .

لقد نال الزمن من (مؤنس) وهو لا يدري ، كما نال من نفس (حسنية) وهي لا تشعر ، ولم يكن حظها في هذا أرفق من حظ مؤنس ، وآية ذلك أنها حينما أجابت نداء (الماضي) عن لقائها حبيب القلب الغابر واتسقت مع دفقاته الفائرة المتقطعة ، لم تستطع أن تدفع سلطان (الحاضر) بل كانت في محاولتها إحياء الماضي ، كما كان (مؤنس) ، متعثرة على الرغم منها .

ولو أن تيمور أجرى موضوعه على الرجل دون المرأة لأوقع بالمسرحية ثلمة ننفذ إليها منه بالمؤاخذة ، ولكنه فطن إلى ما لا يفطن إليه عادة غير المرتاض بصياغة القصة المتمرس بعرض موضوعه عرضاً صادقاً كاملاً .

التبعـــة والعقوبة
فى المجتمع البشري القديم
للأستاذ رفعة الحنبلى

ساد المجتمع ، خلال العصور القديمة ، نوع من النظم الاجتماعية ، وضرب من المبادئ الفطرية ، أخذ بها طوال المدة التى جنح فيها إلى التفكير الهزيل ، والمعرفة الضئيلة ، والعلم القليل مما كان له أثره فيه . فاتسم بطابع خاص يتميز به عن بقية المجتمعات الإنسانية الأخرى ، ولم يقتصر على الثقافة فحسب بل تناول التقاليد والعادات أيضاً

وفى الواقع أنه إذا تقصى المرء أحوال المجتمع البشرى القديم فى الأزمنة الغابرة ، ودرس نظمه الاجتماعية ، وتفهم نفسية أفراده وأخلاقهم ، والتمس ميولهم ورغائبهم ، وتبين عاداتهم وتقاليدهم ، واتصل بهذه النظم على ضوء الدرس المنظم وعن طريق التتبع والاستقراء ، تكشفت له عن حياة اجتماعية متأخرة ، وبيئة ضيقة ، وعقلية محدودة وتفكير سقيم تتباين مع الحياة الاجتماعية الأخرى فى المجتمعات الثانية وبيئتها وتفكيرها وعقليتها ، هذه الحياة الاجتماعية توقفنا على درجة من درجات رقى المجتمع وحضارته وتكشف لنا عن سمة من سمات الطبع والنفس ، ومظهر من مظاهر الروابط الاجتماعية والقيم الخلقية

على أن هذه الحياة لا يزال يشوبها كثير من اللبس والغموض ، ولا تزال تكتنفها ظلمة كثيفة فى كثير من أفيائها وإن أخذ بعض علماء الاجتماع — يدفعهم فى ذلك حب البحث والاستقراء والحاجة الملحة إلى المعرفة — يبددون ما أحاط بها من ظلمة ، وما اكتنفها من شوائب

ومن النواحى التى درسها علماء الاجتماع ناحية جليلة خطيرة لها أثرها المباشر فى الحياة الاجتماعية وفى مقومات المجتمع البشرى أيضاً : هذه الناحية تعرف بالتبعة Responsabilité والتى عرفها المجتمع فى الوقت الذى عرف الإنسان فيه العمل الاجتماعى واضطلع به ، إذ ذهب هؤلاء العلماء إلى أن التبعة كانت معروفة عند أكثر الأمم والشعوب القديمة . وقد استمدت بعض المجتمعات الحديثة نتفاً من قوانينها ونظمها فدمجتها فيما ابتكرته من نظم وقوانين حملت الإنسان تبعة ما يقوم به من عمل اجتماعى أو أدبى أو غيره . والواقع أن المجتمعات البشرية تختلف باختلاف درجتها فى سلم الحياة والارتقاء . فعلى قدر ما يكون المجتمع البشرى من الرقى والحضارة يحتاج إلى نظم جديدة تتلاءم مع الحضارة والرقى اللذين أخذ بهما ؛ فالمجتمعات والحالة هذه لا تتمشى على نظم واحدة ، ولا تتقيد بقوانين واحدة ، بل لا بدّ لها من نظم مختلفة وقوانين متباينة تميز المجتمع الواحد عن الآخر وتصور نفسية أفراده وبيئتهم ودرجة رقيهم وحضارتهم

بقيت مبادئ التبعة التى أخذ بها المجتمع البشرى القديم ، ردحاً من الزمن — قل أو كثر — خافية على كثير ممن يعالجون البحوث الاجتماعية حتى كشف عنها بعض كبار الباحثين ممن درسوا المجتمع القديم دراسة مكنتهم من إدراكها إدراكاً قد يكون تاماً أو لا يكون ، بعد أن وقفوا على خصائص الحياة

ورب معترض يقول : إن الدافع الحقيقى الذى حجز (مؤنس) عن معاودة حياته العاطفية مع (حسنية) هى أعماله بالريف وشواغله الملحة فيه . وهذا حق من ناحية أن هذه الأعمال وتلك المشاغل إنما هى من عناصر (الحاضر) ، والحاضر ، كما قررنا ، يفرض سلطانه علينا . بيد أن هذا ليس كل شىء ، لأن الظروف المحيطة بمؤنس وحسنية — كما رسمها المؤلف — كانت ظروفاً مواتية تسمح لهما باستئناف علاقتهما دون أن يخل ذلك بشواغلهما ، ولكن بشرط . . . وهذا الشرط أن يكون لاهج العاطفة المتأججة فى قلبيهما متقداً قوياً كما هو المشاهد المألوف لدى الأكثرين ، لأن الإنسان يحيا بغرائزه وعواطفه أكثر مما يحيا بعقله ومنطقه ، وفى تلك الفترات التى يكون فيها الإنسان لحياة العاطفة لا يبالى بأى قيد من القيود . ولكن العاطفة القوية أو الحب المتقد لم يكن يعمر قلبى مؤنس وحسنية عند لقائهما الأخير . لقد كان الأمر غير ذلك فيما مضى ، ولكن الزمن أطفأ اللاهج المتقد وأوهن القوى النابض ، ولم يبق فى قلب كل منهما من ذلك الغرام غير هيكل من عظام نخرة تردى مسوح (فيلوس) تكفى أن تهزها اليد لتنهار .

زكى طليمات

الاجتماعية التي سادت ذلك المجتمع ، وبعد أن تفهموا المقومات الاجتماعية العديدة . وما زال الباحثون الاجتماعيون من ذوي الاختصاص يسبرون غور هذه الحياة وهذه المقومات الاجتماعية بعد ما درست آثارها ، وعفت رسومها أو كادت ، فراضوا صعابها وجلوا شكوكها إلى أن وقفوا على عناصرها ومواداها ، وكشفوا عن أسرارها وخبيآتها ؛ وهم إلى ذلك - أي الباحثون - يؤمنون بأن الفداحي من أفراد المجتمع كانت لهم من الآراء الغطيرة ، والتفكير الغفير ، والتقدير الهزيل ، ما حملهم على إلقاء التبعة لا على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع فحسب ، بل على كل الكائنات الحية من حيوان وجماد أيضاً

* * *

بدأ علماء الاجتماع ، في العصر الحاضر ، يدرسون المبادىء التي من شأنها أن تحدد كل عمل يقوم به الفرد في مجتمعه وما يتبعه من عقوبة وقصاص على ضوء علم النفس الحديث ، وعلم الأمراض النفسية Cycopathologie بعد أن كان المجتمع القديم يقيم حدها على كل فرد من أفراده ، دون أن ينظر إلى نفسية هذا الفرد وإلى الأمراض المتصلة بها التي تتعاوره إبان حياته ، بل كان مآل نظم المجتمع القديم فرض العقوبة على أي امرىء ارتكب جرماً أو اقترف إثماً

والتبعة ليست ، في الواقع ، إلا نتيجة لعمل اجتماعي ، شرعياً كان أو غير شرعي ، يخالف ما تعارف عليه المجتمع وما ألفه الناس ، أو بعبارة أخرى نتيجة أعمال وأفعال اجتماعية يقوم بها أفراد المجتمع تتعارض مع القوانين أو النظم الموضوعة التي تستوجب التبعة ، فإذا ما خرق امرؤ حرمة الآداب والأخلاق ، أو نكث عهداً من العهود الاجتماعية ، أو اتهم برقة في دينه أو وطنيته ، أو احتفظ بعلاقة غير شرعية مع فتاة ، كان ذلك كافياً ، في نظر المجتمع ، لأن يحمل تبعة عمله وأن يعد مسئولاً

ولا بد للمرء أن يتساءل عن الأعمال التي قد ترضي الجماعات الإنسانية أو تغضبها إذا ما قام بها ، ولا بد له من أن يتفهم التقاليد والعادات التي تدنيه من المجتمع أو تبعده عنه ، كي يستبين طريقه على ضوئها ، ويمشي حسب نظم المجتمع لئلا يتحمل تبعة

في مآخذ عنيفة ومزالق خطرة تستوجب التبعة والعقوبة

وماذا يعني بالتبعة ؟... هي قيام امرىء بعمل ما ، في مجتمعه أو في مجتمع آخر ، في حالتي النفع والضرر . فالمرء الذي يقدم على أعمال من شأنها تحدي النظم القائمة وخرقها والتي قد يتضرر منها المجتمع الإنساني يكون مسئولاً عن أعماله هذه ، كما أن المرء الذي ينشط إلى المحافظة على الآداب والأخلاق ، والذي يلذ له خدمة الأمة والإخلاص لها والتفاني فيها يكون مسئولاً عن هذا العمل أيضاً . فالتبعة إذاً تقع على عاتق المرء في الحالين المتقدمين وإن اتجه كل منهما اتجاهاً يختلف والآخر جد الاختلاف من حيث الوسيلة والغاية ؛ وإذا ما أبدلنا العقوبة بالمكافأة واللوم بالثناء ، فمن هو الذي يستحق العقوبة واللوم ، ومن هو الجدير بالمكافأة والثناء ؟ ... مما لا مشاحنة فيه إن الإنسان يكافأ على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ...

ألا ترى أن الأب يكافئ ابنه الأديب الوديع ويعاقب الطائش الشرير ؟ ... وكذلك المربي ؛ ألا تراه يغدق الثناء العاطر على الطالب الخلوق المطيع ، وينحي باللائمة على الغفور المتمرد ؟ ! والحكومة ، ألا تشعر أنها تكافئ رجالها المخلصين والعاملين بالأوسمة والرتب ، وتعاقب المجرمين والخائنين بالسجن والإبعاد والقتل أحياناً ؟ ... ألا ترى أن الجماعة البشرية قد أعدت جوائز قيمة ، أدبية ومادية ، للأفراد الذين يحملهم الإخلاص ويدفعهم الوفاء على التفكير بترقية المجتمع وتخفيف الآلام عن الإنسان ، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ؟ أليس كل ذلك يدخل في حدود التبعة الاجتماعية على اختلاف شكولها وتباين غاياتها ؟ ! على أن العلماء لم يقصدوا بالتبعة إلى المعنى الذي ذهبنا إليه ، ولم يتجهوا الاتجاه الذي أخذنا به ، ولكن هي الحقيقة وهو الواقع ! ولم لا يكون المرء مسؤولاً عما قام به من صالح الأعمال كما يكون مسؤولاً عما جنته يداه من إثم أو جريمة ؟ ! وما التبعة في الواقع إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية التي ارتضاها الإنسان لنفسه ، وتلك البيئات التي تكتنفها التقاليد والعادات ...

ومن هو المسئول — في الدرجة الأولى — في نظر المجتمع

لقد أعطت الجماعات الإنسانية أجوبة تختلف باختلاف حياتها الاجتماعية وبيئتها وثقافتها ، وتتباين بتباين أخلاقها وتقاليدها وعاداتها . على أنها جعلت الإنسان — منذ الأزمنة القديمة — التبعة ، باعتباره أرقى المخلوقات الحية وأشرفها وأذكاها ، وأقربها من المدنية والحضارة ، حيث يقوم بدوره الرئيسي في المجتمع ، إذ أنه يتم بعقلية نيرة تدفعه إلى استخدام الحيوان لشؤونه اليومية والمعاشية والاستفادة من النبات والجماد لمنافعه الشخصية والبيتية التي تتطلبها حياته الاجتماعية . وهو — فوق ذلك — يملك من الأهلية والاستعداد ما يجعله يحمل تبعة ما يقوم به من عمل . لذا نجد الإنسان شاعراً بالتبعة ورازحاً تحت ثقلها منذ اليوم الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل

ولا يمكن الأخذ بالتبعة أو الإقرار بها إلا في حالة خاصة ، بمعنى أن الإنسان إن لم يتمتع بعقل سليم وتفكير صحيح فلا جناح عليه بما يأتيه من عمل شائن أو فعل قبيح ؛ لأن سلامة العقل وصحة التفكير شرط أصلي — في بعض المجتمعات — لإلقاء التبعة وتحمل العقوبة ، وإن أقرّ البعض هذه التبعة على من لم تتوفر فيه هذه السلامة والصحة ، حتى أن بعضهم ذهب إلى إلقاء التبعة على الطفل والمجنون والأبله والمعتوه أيضاً ... وتلك المجتمعات القديمة ، والحديثة المتأخرة ، تذهب إلى أبعد من هذا الحد ، إذ ألقت التبعة على الحيوان والجماد ! !

وقد تتعدى هذه التبعة من شخص إلى آخر وإن لم يجمعهما نسب أو قرابة ، وتتجاوز الفرد إلى الجماعة ، وإن لم تكن بينهما صلة أو علاقة ، وتصرف حينئذ بتبعة الجماعة ، لكنها تبقى — في غالب الأوقات — تبعة غير محدودة Respousabilité indeterminée . بيد أن الجماعة التي تتحمل التبعة تكون ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة — ولو إلى حد ما — بصاحب الجريمة أو الإثم ، باعتبار أن أفرادها وحدة لا تتجزأ ، وباعتبار أن المتهم فرد منها ، فالجريمة التي يؤخذ بها هذا المتهم تؤخذ بها الجماعة ، والتبعة التي يتحملها تشاركه الجماعة فيها ، والعقوبة التي تفرض عليه تنالها أيضاً على حد سواء ؛ وتبعة الجماعة إنما تكون في الجماعات التي تعيش قبائل منفصلة الواحدة عن الأخرى ، وفي المجتمع القديم الذي يتبع نظام الطوتمية Totemisme ، والجماعات التي يرأسها شيخ هو أكبر أفرادها سناً Pater Familias ومن هذه الجماعات ظهرت أول مبادئ تبعة الجماعة التي تتعدى أقرب الناس إلى أبعدهم عن المتهم

وهناك أيضاً بعض الجماعات ممن يقرون مبدأ التبعة الفردية في جرائم خاصة ، ومبدأ تبعة الجماعة في جرائم أخرى ؛ ففي حالة الجرائم الصغرى كالسرقة أو القتل ، إنما تكون التبعة فردية ، وتكون جماعة في حالة الجرائم الكبرى كالخيانة الوطنية وخرق حرمة الدين ، والثورة على الحكومة وقتل الملك وغيرها ... ففي هذه الحالة تسود التبعة جميع أفراد عائلة المتهم دون النظر إلى تفاوت درجة القرابة والأعمار بينهم ؛ فالجد والأب والأعمام والأولاد والحفدة يساقون إلى منصة الإعدام كالمجرم على حد سواء ؛ أما أقرباؤه الأدنون ، فيعاملون معاملة العبيد ويصبحون أرقاء ، توزعهم الحكومة على قادة الجند بمثابة رهائن ، ينتظمون للعمل ، ويحبسون على الخدمة ، وتصادر أملاكهم ، وتحجز أموالهم ، كما صودرت وحجزت أملاك أولئك من قبل

كذلك كان عدم الوفاء لصاحب الجلالة ، أو عصيان أوامره المقدسة ، يسبب للفرد عقوبة تذهب بحياته ، وتودي بأسرته إلى العذاب البئيس ، وتهوي بهم إلى أدنى درجات الاسترقاق والعبودية ؛ أما هو ، فيعدم ويحرق ، وأما زوجه وأولاده ، فيصبحون أرقاء ؛ أما أبواه وجداه وإخوته وأولاد أخيه ، فينفون من الأرض إلى أمد بعيد

وهكذا نجد أن هذه العقوبة المنيفة التي تمرّض صاحبها وأسرته ومن يلوذ به إلى الموت ، والتي تحمل من ذوي قرابته عبيداً أرقاء ، لم تستأثر بها أمة دون أخرى ، بل اشتركت أكثر الأمم فيها مع اختلاف العقوبة من حيث العنف والقسوة باختلاف شرائعها وقوانينها . ففي فرنسا مثلاً — أيام قيام الملكية في ربوعها — كانت عقوبة النبيل والشريف الذي يرتكب أية هفوة في حق الملك أو الامبراطور، هي تجريده من رتبه العسكرية ، وإنزال درجته النبيلة ، وإبعاده مع أسرته خارج المملكة ، أو الامبراطورية ، مع حرمانه هو وأسرته من العودة ثانية إلى بلاده ووطنه حرماناً قد يكون أبدياً ؛ وإن قدر له أن يعود دون عفو خاص من صاحب الجلالة ، فإنه يعدم حالاً دون أية محاكمة

أو أي تحقيق ؛ أما إذا لم يكن نبيلاً ، وكان ينتسب إلى عامة الشعب ، فعقوبته كما يقول الأستاذ Jousse : تماثل عقوبة الشريف فضلاً عن هدم منزله وإعفاء أثره . وإذا تعمق الباحث في درس هذه التبعة ، ردّ دواعيها ومسبباتها إلى ذلك الاعتقاد السائد — قديماً وحديثاً — أن صاحب الجلالة هو خليفة الله في أرضه ، لذلك كان لهذا الاعتقاد من الأثر القوي في نفسية الشعوب والأمم ما جعلها تشرع هذه العقوبة العنيفة لحفظ خليفة الله من الاغتيال وحرصاً على شخصيته المقدسة

والأمة العربية لم تعرف في سالف عهدها التبعة الفردية بل كانت آخذة تبعة الجماعة باعتبار أنها ترى نفسها قائمة على التكتل وعلى المبادئ القبلية وإفناء الفرد إفناء كلياً في المجموع . وكم من حرب ظل ضرمها يحتدم بين قبيلة وقبيلة لجريمة ارتكبها أحد أفراد هاتين القبيلتين ! . . . وكم من تضحية فرضت على فرد لم يقترف إثماً . . . ! أو على أفراد قبيلة لم يجنوا جريرة أو ذنباً ! . لقد كان رأس القبيلة هو المسئول الأول والمباشر عن عمل كل فرد من أفراد جماعته ، كما أن القبيلة بأجمعها مسئولة عن هذا العمل أيضاً . . . وجاء الإسلام بالشريعة السماوية السمحة ، فحدا تبعة الجماعة وأقر تبعة الفرد ورسم حدودها وأمسى الفرد مسئولاً عن عمله دون غيره مهما تزادفت آثامه وتعددت جرائمه ، ولا تزروا وازرة وزر أخرى . . .

إلا أن العرب عرفوا ، قبل الإسلام ، نوعاً من التبعة الفردية ، في حدود ضيقة محدودة ، كانت قائمة ما قام « نظام الخليع » على معنى أن القبيلة كانت تكره في بعض الأحايين على مجازاة أحد أفرادها لخصال وخلال لا تقرها عليها أو تتنافى مع بيئتها وأخلاقها — فتخلعه من ذمتها وتهمده عنها وتقطع صلته بها ؛ فالمرء الذي تلفظه القبيلة يتحمل هو وحده تبعة عمله وليس لقبيلته أن تتحمل شيئاً من هذه التبعة كما أنها لا تطالب بدمه إذا أهدر .

إن هذه الظواهر الاجتماعية ، في صدد تبعة الجماعة ليست في الواقع ، إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية الضيقة وصدى ذلك النظام الاجتماعي الضعيف . وكثيراً ما كانت هذه التبعة جد عنيفة وقاسية ينوء الفرد بحملها ويرزح تحت ثقلها

لقد تقاص ظل هذه التبعة عن الإنسان في مجتمعنا الحاضر وعفت رسومها وامحى أثرها إلا عند الجماعات المتخلفة عن المدنية والحضارة واتجه إلى التبعية الفردية إذ أصبح الإنسان مسئولاً عما يرتكبه من آثام وجرائم ، ولا شأن لأسرته وذوي قرابته فيما يرتكبه من إثم وجريمة ، وإن كان بعض الأمم التي بلغت أقصى درجات المدنية والحضارة ، وأمسى مراتب الرقي والتمدن ، تأخذ بها أحياناً في حالات خاصة إبان الحروب والثورات .

[البقية في العدد القادم] — بيروت — رفعت النبراوي

الرسالة في سنتها العاشرة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء ، مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطا أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من ديسمبر إلى آخر يناير ١٩٤٢

ولن يمد الأجل بعد ذلك

من الأدب الروسي

أنطون تشيكوف

الكاتب الروسي العالمي

[من كتاب « رجال القصة الروسية الحديثة » لميرج برسي]

للأستاذ خليل هنداوي

من عادة الناس القول : « بأن الإنسان لا يحتاج إلا إلى مترين من الأرض ، لكن هذه الحاجة هي حاجة الجثة الهامدة ، لا حاجة الإنسان الحي الذي لا يكفيه إلا هذا الفضاء . لا يطلب الانسان من الأرض قيد أقدام ، ولا يطلب مسكناً ، وإنما يطلب الأرض بأسرها ، والطبيعة بسعتها ، لكي تتفتح على آفاقها كل خصائصه ومزاياه بحريته ؟ »

هذا ما قاله — تشيكوف — من أبحاثه ورسالته حين دخل الحياة الأدبية . ولد سنة ١٨٦٠ ، وبعد أن أنجز دراسته في جامعة بلده أتم دراسة الطب في موسكو حتى غدا طبيباً مشهوراً ، لكنه أخذ يسأم هذه الحياة العملية ، ويستهويه عامل الأدب . فنشر عدة أقاصيص في بعض الصحف ، وكان يؤجر عليها ، لأن موارده في العيش كانت ضئيلة . وقد جمعت قصصه الأولى ولم تكن مما تبعث على الرضا ، لأنها قصص كتبت لاجتذاب القراء وتسليتهم في أوقات فراغهم ، دون أن تنطوي على فلسفة معينة ، أو غاية معلومة . لكن الكاتب سرعان ما تبلورت نفسه ، واتسعت آفاق عقله ، فترك ذلك الجو الصبياني ، ودخل في جو ملؤه دراسة الإنسانية ، وهذه الدراسة طوقت روحه بالحزن والكآبة . أضف إلى ذلك أن بلده كان يكابد عناء الحروب في الحرب الروسية التركية ، هذه الحرب التي كان ثمنها تحرير بلغاريا مذ أوحت إلى الروس أنفسهم بإدراك حريتهم وأثارت في الشباب العزم للعمل على الوصول إلى هذه الحرية مهما بلغ الثمن وأرهقت المقادير . لكن هذا الأمل تحطم ، وهذه الجهود ذهبت عبثاً ، لأن الرجعية قد ظفرت ، وبظفرها طارت الأحلام ، فمرا النفوس شيء من الذهول أو التخدير ،

ومن كان في قمة العزيمة والأمل جاء انتكاسه عظيما ، ووشكان ما دب في هذه القلوب المنشطة دبيب اليأس والعجز ، فمن القلوب من لاذ بالعزلة لوحده كأنه لا يريد أن يبدي جراحه ، ومنها من اعتصم بالعمل ليذهل ، ومنها من ظل يرسل الأنين تلو الأنين لعله يشفى . وهكذا يقال إن ضباباً رمادياً أحاط بحياة القوم ، حاملاً معه الكآبة . هذه هي المشاهد التي وقف عليها — تشيكوف — براعته ، ولم تنتج روسيا مثله كاتباً استطاع أن يصور لنا اضطرابات هذه الفئة من الناس التي كانت تمشي خابطة على وجهها بدون فجر ولا رجاء .

يقول أحد أبطاله مفسراً الأزمة الخلقية : « ليس لي من العمر إلا ست وعشرون ، ولكن أراني لا أجهل أن الوجود يمشي بلا غاية ، خالياً من أي غرض ، وكل شيء فيه باطل زائل . تتشابه فيه حياة ساكن جزيرة « سخالين » مع حياة ساكن « بنس » ؛ والفرق بين دماغ « كانت » ودماغ دبابة ما ليس له قيمة حقيقية ، وأن لا شخص في هذا الكون على ضلال ولا على صواب »

وفكرة — العدمية — بكل مظاهرها المروعة تنعكس كثيراً ما في آثار تشيكوف ، وأقصوصة « القبلة » ليست إلا وجهاً من هذه المظاهر . فالمريف « ريابوفيتش » بتأثير قبلة غير مقصودة لبث يحلم بالحب طوال صيف ؛ فهو ينتظر متألماً ساعة العودة ليرى جميلته المجهولة ، لكن حلمه لم يكن إلا وهماً ، إذ لم يكن هنالك أحد ينتظره . وبينما كان في أصيل يوم يسرح على ضفة جدول استسلم لتأملات تتفجر من قلبه : « الماء يفر إلى حيث لا يعلم أحد ، ولا لماذا . إنه يفر على الحالة التي مر بها في أيار الثائر . إنه عبر من الجدول إلى النهر الكبير ، ومن النهر الكبير إلى البحر ، ثم إنه تبخر واستطار ، ثم استحال مطراً . فهل أرى ذات الماء يركض جديداً على مرأى من عيني ؟ ! ما غاية ذلك ولماذا ؟ ! وهكذا أصبحت الحياة عند هذا المريف لغزاً معمى لا يدركه العقل ، تمشي على غير غاية ، ضائعة بدون قرار

وقد أعطانا تشيكوف نماذج عدة لأفراد انتقاهم من بيئات مختلفة ؛ فكأنما يأخذ القارئ بيده ، يقوده إلى أي مكان يستطيع أن يعرض عليه فيه صوراً من المجتمع الروسي الحديث :

في الحقل أو المصنع أو الطريق . وهو بعد ذلك لا يستقر في موقف ، ومهما كانت المواطن التي يرتادها القارئ وراء آثاره لا يخرج منها إلا مشبعاً بهذه العزلة الروسية المؤلمة

يقدم لنا تشيكوف مثلاً للحبة الضالة في كثير الأحلام ، يضع رأسه حيث تطلع عليه منه أية فكرة جديدة . قد بحث عبثاً طوال حياته عن شكل عملي يلائم مثله الأعلى الذي يراه ، والآن تركه القدر أباً أو ترك له ابنة تكرهه على كسب قوتها وقوته ، هو يحب ابنته ، ولا يفتأ يردد اللوم لها على كثير من العيوب في حياتها القلقة . في أمسية ساهرة ، وجدت امرأة أيم — هذه الفتاة العابسة الشاردة ، فأخذت تعزيها بكلمات لطيفة ، وفي هذه الساعة تحدث الأيتام وشكا كلاهما للآخر ما عنده ، وأذاع الرجل عليها قصة حياته كلها ، وما ساقه إليه القدر ، فاهتمت بحديثه اهتماماً شديداً وأقبل عليها بقلبه وعاطفته . حتى ليظن الناظر أن القدر لم يجمع بينهما باطلاً ، وإنما لأمر يريده في الجمع بينهما ، وفي الغد ركبت المرأة العجلة ، وكان يساعدها على الركوب ، وإن الآذان لتنتظر منهما الكلمة التي يجب أن تجمع ما بينهما ، ولكن لم يقل واحد هذه الكلمة . انطلقت العجلة ولبث الرجل جامداً كالتمثال . ينظر بعاطفة فيها فرح وألم إلى الطريق الممهدة التي توارت عليها السعادة التي فرت من بين يديه منذ قليل

وقصة « الغارة » تقدم لنا مثلاً لعاطفة الخوف الحادة التي تغزو نفس فتى متكبر اصطدم ببعض الحقائق . فالطالب « فاسيليف » وهو ذو طبيعة حادة دخل للمرة الأولى بيت الهوى ولكنه لم يستطع أن يتحمل التأثيرات المرهقة التي كان يكابدها ؛ وغزت رأسه أفكار مظلمة أحاطت به من كل مكان . فكان يصيح آخذاً برأسه : « أحياء ... أحياء ... لو حطمت هذا المصباح لوجدتم أن في هذا شراً ، ولكن — هنالك — ليست المصابيح هي التي تحطم ، ولكن حيوات الخلائق البشرية . . . أحياء » ثم أخذ يفكر في وسائل استنقاذ هؤلاء المنكوبات ، ويبدو له أن يجلس على قارعة الطريق مخاطباً كل عابر : « إلى أين تمضي ؟ ولماذا ؟ إلهي الله ! » لكن هذه الفكرة سرعان ما غلب عليها الألم والريبة من نفسه ، وزاد عليه الألم حتى سحق قلبه ، ولكن فتيان مجتمعه لم يتألموا من أجله ، وإنما كانوا يمرحون غير ملتفتين إليه . فأحس الطالب أن عقله يفلت منه . فتهيأ حتى إذا ما شفي مما هو فيه ذكر عواطفه الأولى ، وخجل منها ، وهكذا حطم مذهبه ، وخنق حلمه

في الأوساط الاجتماعية ، وصرايع المال يكاد الإنسان يبدو أكثر ابتعاداً عن الأثواب السطحية والمظاهر الكاذبة . فإن المكافحة المتواصلة ضد الفقر لم تترك فرصة لتيرها . الحياة قاسية تحطم بلا رأفة أحلام السعادة ، ولا تدع للانسان — على الأغلب — رفيقاً يقاسمه أثقال الهموم والرزايا حتى الصغيرة منها . وقصة السائق تعطينا مثلاً لهذه العزلة ، هذا السائق المدمم فقد ولده فلم يأنس في نفسه القدرة على احتمال هذه المصيبة . ووجد فيها ما يدفعه إلى أن يحدث الناس بها . ولكنه كان يبحث عبثاً عمن يستمع إليه . وفي يوم من أيام عمله ألقى نفسه وحيداً مع فرسه فناجاها : « نعم يا فرسي الصغيرة ! إنه مات ولدي الحبيب ، وتوارى سريعاً من دونه . لنفرض أن لك مهراً ، وهذا المهر مات على حين غرة ، ألا يؤلمك فقده ؟ » أما الفرس فقد رنت إليه بعينين هادئتين لامعتين ، ونفخت من أنفاسها بين يدي صاحبها الذي أنجز قصة موت ولده

ولتشيكوف قصص رائعة وقفها على وصف الحياة القروية التي تشبه من وجوه عدة حياتنا القروية . ومن ذلك « القرويون » . فنيقولا خادم في أحد فنادق « موسكو » ساوره داء عياء ووجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عمله . وكان كل ما يقتصده يذهب إلى أيدي الأطباء والصيادلة . وعند ما يئس من شفائه قرر أن يعود إلى قريته حيث أهله وأخوته ، لأنه يؤثر إذا فاته الحياة أن يموت على مرأى من أهله . لقد ترك القرية حين كان فتى ثم لم تقع عليها أنظاره بعد ذلك . عاد هو وزوجه وابنته ، فوجد أباه وأمه وأخوين له مع أزواجهما وأولادهما في هوان وفاقة ، وألفى أن الأسرة كلها تأوي إلى زريبة مظلمة قذرة يرن في أجوائها النيب ؛ فأدرك أن بقاءه في موسكو كان الأجدر به ، ولكن هنا أمل خادع لأنه لا يملك أجر العودة . إذن يجب البقاء في هذا اللحد الذي اختاره . وهكذا استقبلتهما هي وزوجه حياة كلها نصب ونكد وشقاء ليس فيها إلا النزاع والصفع والشواء بدون نهاية . إنه يريد أن يعود ، لأنه ملّ هذا الوجود ، ولكن أنى له

المـال ؟ فزادت محنته سوءاً على سوء ؛ فوعده صاحب قديم بشفائه ، فقام بجملة تجاريب كانت القاضية عليه . وقضت زوجه من بعده عناءها في القرية مع ابنتها . فأسرع ذيب الهم بخطوط الكهولة إلى وجهها الذي كان يجار فيه ماء الشباب ، ومالت قامتها ، وتبدلت حالتها . ومن ذا الذي يبقى على الهم ؟ أقبل الربيع والأم وابنتها تدخلان الكنيسة ثم تزوران ضريح فقيدها، ثم تطوفان سائلتين في الطرق ! وتشيكوف نفسه يقول : « إن حياة عمالنا هي سوداء تعشى في طريق الفسق ، أما حياة الشعب : عماله وفلاحيه ، فما هي إلا ليل مدلهم ملؤه الجهل والفقر والظلم »

* * *

إن تشيكوف ببراعته الفائقة، ونظراته الشخصية، يصف الحياة الإيجابية والسلبية ؛ وهو ليس بذي طبيعة هائجة ، لأن كتابته يشعرها العطف العميق . وهو لا يسخر من أبطاله ، وإنما يشفق عليهم . عبقريته هادئة، مفكرة، عميقة، ولكن يخيل أحياناً أن هذا الهدوء ليس إلا قناعاً . وقد قال ناقد فيه : « إنه قلم ذو حنان » وهو في قصصه ينبوع فياض ، لا ينفذ له موضوع ، ولا يفتر له تحليل برغم بساطته . وهو لا يعنى بالأسهاب الكثير ، والاستطراد البعيد ، لأنه يكفيه أن يطرق الجانب الحي من الموضوع .

جرب تشيكوف الكتابة المسرحية ، وله منها القوى المتين ، ومن ذلك مسرحية « الأخوات الثلاث » . هؤلاء كن يشتهين حياتهن في بلدة حقيرة تبث على السأم ، خالية من الرجال اللامعين ، وليس فيها إلا من تشابهت وجوههم ، وتشاكلت نفوسهم، كأنهم نسخة واحدة تكررت نسخاً . وكان حلم هؤلاء السفر إلى موسكو ، لكن بلادتهن قضت عليهن بالبقاء ، فليتهن يتناقشن ويتجادلن متفلسفات في مواضيعهن . وقد اتفق أن نزل المدينة ثلة من الجند ، فاجت فيهن الحياة ، وكان لهن حوادث حب مع الضباط دامت حتى يوم الرحيل .

قالت الكبرى : إنهم رحلوا . . . سنبقى وحدنا ! والحياة الماكنة ستبدأ .

فقالت الثانية : إنما يجب العمل ، لا شيء يعزينا إلا العمل !

وقالت الثالثة معانقة أختيها في حين راحت الموسيقى العسكرية تعزف لحن الرحيل : يا أختي ! إن حياتنا لم تنته بعد، إنها صنعها .

هذه الموسيقى تضحك طربة . . . رويداً رويداً ! إنني أحس به . . . سنعلم غداً لماذا نحيا ولماذا نتألم !

هذه ناحية قوية من نواحي فلسفة تشيكوف البسيطة ، وهي بمجموعها تنم عن (عجز عن الحياة مشوب بأمل مبهم . . .)

* * *

إن تشيكوف في الحقيقة منحة الأدب الروسي ، وغرسة لم تمهدها إلا تربة عرقه . ففي نزوعه إلى الحرية ترن ألحان تولستوي ؛ وفي ميله إلى شراء الماضي بالألم يلوح وجه « دوستوفسكي » كأنما آثار كبار الروس تتبين خلال سطوره .

وقد شبه تشيكوف من نواح عدة « موباسان » و « إبسن » لكنه لا غموض ولا إبهام فيه ، لأن الغموض الفرويجي لا يلائم روح الأدب الروسي الذي ينزع إلى مجابهة المسائل اللعونة في الحياة مجابهة صريحة عنيدة . ولقد حار في تحديد قيمته النقاد فمنهم من وصفه بأنه كاتب « خلي » لأن كتابته لا تدعو إلى الثورة التي برزت في بعض آثار غيره ، ومنهم من وجد فيه متشائماً لا يتفاءل في شيء من الحياة الروسية ، لأنه ملتفت إلى وصف الآلام أو الجهود النازعة إلى طلب حياة تكون أحسن أناناً ورثياً

ولعل في الرجوع إلى بعض سطور له ما يفيدنا في توضيح صفات هذه الشخصية الفذة ، ومما يقوله : « إنني أخاف أولئك الذين يفتشون عن ميول ورغبات خفية بين السطور ، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا في محرراً أو محافظاً . . . إنني لست من ذلك في شيء . . . لست بالمحرر ولا بالمحافظ ، ولا بالراهب ولا بالخلي ، وإنما أنا رجل أمقت الكذب والمسولة في أي مكان وتحت أي مظهر . . . لا أريد أن أكون إلا فناناً . . . وهذا كل شيء » ولكن هذا الفنان الحر الذي أبغض الكذب والمسولة في المعنى الذي تفهمهما لم يستطع أن يكون إلا محرراً للانسان بأوسع معنى للتحرير ، ولم يكن بذلك المتشائم الذي تمثلوه ، لكنه كان كاتباً يتألم لمثله الأعلى ، ويوقظ بكتاباته الأمل في الخروج من غمق الحياة التي وصفها . وقد تبدى في بعض مراحله أنه مؤمن بمستقبل الإنسان والإنسانية ، فيقول في محاورة له ليستانه : « أتعلم بعد جيلين أو ثلاثة أن الأرض ستصبح بستاناً زاهراً

وإذ ذاك كم تغدو الحياة جميلة ؟ » وهو الذى يقول بأن الإنسان قوة الأرض المركزية « وينبغى للانسان أن يعلم أنه أسمى من كل ما فى الطبيعة ... إننا أكوان سامية عظيمة ؛ وحين ينسى لنا أن نعرف كل قوى العبقرية البشرية تغدو قرناء الآلهة »

لكن هذه الآمال الكبرى لم تحل بينه وبين وصف عجز الإنسان فى كل زمان ومكان ، فهل تأتى ذلك منه بطريق المناقضة ؟ نقول : لا ، لأن تشيكوف إذا لم يشك لحظة فى تقدم الانسانية فانه ليتألم ، ويبعثه على الألم تشاؤمه الأسمى النزاع إلى السمو ؛ هذا التشاؤم الإنسانى تجاه ما يحور العقل أمامه عجزاً ، وهذه العاطفة تتألم وتيأس إزاء خبط الحياة وعصف الموت

يقول أحد أبطاله : « إنى إذاً ما خشيت الحياة ولم أفهمها ، فعندما أرقد على بساط من الأعشاب . وأتأمل طويلاً فى حشرة وانت فى مطلع الليل ، لأتفهم شيئاً من وجودها . يخيل إلى أن حياتها ليست إلا مرحلة من الرعب والذعر ، فيها أرى نفسى ، وأتمثل خاطراتى ... كل شىء يروعنى لأنى لا أفهم العقل ولا نهاية الأشياء . لا أفهم شيئاً ، ولا أدرك أحداً . . . أما أنت فاذا كنت تفهم فأحر بى أن أهتك ... »

و « حين ينظر الإنسان طويلاً فى السماء الزرقاء المترامية ، فالأفكار المنبثة والنفس تتحد اتحاداً خفياً فى عاطفة عزلة عميقة ، وخلال لحظة واحدة يشعر الفكر بوحدة الموت ولغز الحياة اليائسة المروعة »

إن هذا اليأس الشامل ، وهذا الشقاء الذى تحدث عنه تشيكوف يتمثلان فى آثار كل الشعراء والفنانين الروس البارزين . ومن منهم لم يرسم الحياة بهذه الخطوط المجسدة ، ولم يجعل فؤادها مغموراً بهذا اليأس !

على أن تشيكوف - بما أوتى - رأى وأدرك وجهى الحياة : وجه تقدمها التاريخى والاجتماعى ، ووجهها الآخر الذى يحيط بها من كل ناحية : هذا الوجه المظلم المجهول الغائم تحت أنفاس الموت الباردة

« حلب »

مليل الفنداوى

فى أول العام الهجرى

تصدر الأنصار فى حجم أكبر ومادة أوفر

الاشتراك السنوى : ٢٠ والمعلم الالزامى والطالب ١٥

المكاتبات بعنوان : « الأنصار » شارع البستان رقم ٢٤

في الخبأ ...

للأستاذ محمد محمود دوارة

عشنا اثرى ما لم يكن يخطر لنا على بال . واضطرتنا حوادث الأيام إلى أن نأتى أعمالاً لو أنا أتيناها قبل اليوم لنسب إلينا الجنون المطبق ! ...

انقلبت جميع الأوضاع رأساً على عقب .

كان الظلام مبعث الرهبة والخوف ، فأمسى هو الملجأ منهما

كان المنزل هو المكان الذى يتوفر فيه أمن المرء وطمأنينته فأصبح الملاذ كل الملاذ فى البقاء بالمنزل .

كانت الشجاعة فى الثبات أمام الأخطار والمكاره وعجابهتها وجهاً لوجه فإذا هى فى الفرار والهرب .

كان النهار مساعاً والليل لباساً فإذا النهار غير معاش والليل هلاك .

كان القمر فتنة السكون فى لياليه الباهرة ، وكان نجوى الشاعر والعاشق والفنان ، فإذا هو علامة من علامات الشر ، ونذيرٌ من نذر الدمار والخراب .

فسبحان الذى يغير ولا يتغير ...

* * *

بعد منتصف الليل والكون غارق فى بحار الكرى تدوى فى الفضاء فجأة أصوات منكرة متقطعة متكررة لا عهد لنا بها من قبل ، فكأنه قد نفخ فى الصور ، وجاء يوم البعث والنشور .

يثب المستدفئ من فراشه الوثير وكان لو خيّر بين تركه أو خسارة نصف ماله لضحّى بالمال غير متردد فى الاختيار .

وتخلو الشوارع فى تلك الساعة التى اعتادت فيها الفراغ إلا من متسكع لا مأوى له ، أو حارس تعلم بالتجربة كيف ينام وهو واقف ، أو سهير جعل من ليله نهاراً .

رجال ونساء وصبية وأطفال كلهم مفزوع مضطرب . كلهم صامت كأن لم يخلق له لسان ولا شفتان ، وكلهم سريع الخطى لا فرق بين هرم وشاب ، ولا بين عجوز وفتاة فى عنفوان الصبا والشباب .

قف فى تلك الساعة وتأمل فى الناس ...

هذه جارتى الحسناء التى اعتادت أن تقف أمام المرآة نصف النهار لتخرج إلى الناس فتنة وسحراً لا يقاومان ، ها هى قد خرجت تهرول بوجهها الذى خلقه الله . لم تمكنها المفاجأة ولم يمكنها الخوف من الكذب على عباد الله .

وهذا جارى الذى لم أكن أراه ولم يكن يراه الناس إلا منتفخ الأوداج مصعر الخد متبختراً يمشى الهوينى كأنه الهودج أو الفيلق الروى ، ها هو الآخر يهرول فى مشيته ضارباً بأصول العظمة والكبر ومشية الحكام عرض الحائط

وهذا الرجل الذى قطع حبل السكون بضراعته إلى الله تعالى وبدعوة رسله وأنبيائه وأوليائه ، هل رأيته فى الصباح وسمعته وهو يسب الأديان جميعاً لسبب من أتفه الأسباب ؟

ما أروع الفرق بين الليل والنهار فى هذه الأيام !

وما أقرب المسافة بين إيمان الإنسان وكفره ، وبين أمنه وخوفه وبين هداه وضلاله !

وفى الخبأ فى كل ليلة من ليالى الغارات تستطيع أن تشهد وأن تسمع ما لا عين شهدت ، ولا أذن سمعت ، قبل هذه الليالى السوداء !

* * *

دخل الخبأ متأخراً عن رواده بقليل رجل يحمل فى إحدى يديه مصباحاً كهربائياً (بطارية) يستعين به بين الفينة والفينة على تعرف طريقه ، فما كاد يطأ بقدميه بابه حتى ضغط زر المصباح ليرى ما أمامه ، ولكنه سرعان ما ارتد إلى الوراء مفزعاً مضطرباً إذ تناولت صيحات الاحتجاج والتوبيخ الموجهة إليه من كل جانب

— من هذا الغبار الذى يريد ضياعنا فى شربة ماء ؟ !

— من هذا المجرم الذي يريد قتلنا ؟ !

— إطفئ النور أيها المغفل

— الله ، الله ... أتريد قتلنا بمصباحك كما قتل مصباح آخر قوماً آخرين بالإسماعيلية ؟

* * *

ووسط ذلك السكون الرهيب والظلام الدامس انبعث صوت متحدث رزين تدل نبراته على قرط الرسوخ في العلم

قال زاده الله علماً ومعرفة :

— الصمت مطلوب في هذه اللحظة يا إخوان، لأن طيارات الأعداء بها أجهزة خاصة لالتقاط أصوات المتكلمين وهي من الدقة بحيث لا يخفى عليها حتى همسات الهامسين ... ضموا ألسنتكم في أفواهكم ، وإن استطعتم فاكتموا أنفاسكم على قدر الاستطاعة ! بهذا حكم الله وبه قضى ، ولا راد لقضائه سوى رحمته . واعلموا أن كل من يجازف بالحديث أثناء تحليق الطائرات في الجو كأنه يريد أن يدل الأعداء على مكاننا ، أو بمعنى آخر كأنه يريد القضاء على نفسه وعلينا جميعاً

ولست أدري هل صدّق الناس قول ذلك الخبير العجيب أم لم يصدقوه ، فإن واحداً منهم لم يعترض على ما قال ولم يحاول مناقشته ، ولكني لا أشك لحظة في أن جارتي العجوز قد آمنت بكل كلمة من كلماته ، وإلا فما بالها تكتم أنفاسها ذلك الكتم الشديد الذي جعلها في آخر الأمر تعلن إفلاسها في تلك المحاولة العسيرة قائلة : بفضل الله ما يشاء ... إنني أكاد أموت اختناقاً

ثم جازفت وعادت سيرتها الأولى في استنشاق الهواء ونفثه بالكيفية المعتادة

* * *

وعند مدخل المخبأ وقفت مع بعض اللاجئين فراراً من الجو الخانق في داخله كان بيننا جندي من أهالي الصعيد يظهر من لهجته الجافة أنه لم يذق أي نصيب من التعليم أو التهذيب

ومما يدل على حاجته الشديدة إلى دروس في الذوق أنه اختار هذه المناسبة ليحدثنا عن جماعة لجأوا إلى مخبأ في بلد من البلاد المنكوبة بالغارات فأصيب ذلك المخبأ وهم فيه بقنبلة مباشرة نسفته نسفاً وجعلت من فيه أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقري !

وفي أثناء حديثه ظهرت أنوار المصابيح الكاشفة متعكمة على السحاب فأراد أحدنا أن ينتهز فرصة ظهورها ليحول التفاتنا إلى غير ذلك الحديث المقلق للراحة حديث الجندي البهق ! فقال وهو يشير بسبابته إلى حيث تلك الأنوار :

— أنظروا ! ها هي الأنوار الكاشفة قد بدأت عملها

ولكنه ما كاد يفعل حتى انقض الجندي على ذراعه الممدودة في الفضاء وإذا به يجذبها في شدة وعنف قائلاً في غضب ليس بعده غضب :

— أأنت مجنون يا هذا ؟ أتريد أن ترى الطيارات ذراعك الممدودة وسبابتك الموجهة إليها فتعرف مكاننا ولا تتركنا إلا أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقري كما حدث في ...

واستأنف حديثه كما بدأه . . .

* * *

وردد الفضاء صوت انفجار أول قنبلة مضادة للطائرات ، ثم تلاه أصوات متلاحقة لقنابل أخرى تتفاوت في الشدة والقوة فسرت في المخبأ دمدمة رهيبة تلاها صمت كصمت القبور لم يقطعه إلا صوت امرأة تخاطب زوجها قائلة :

— هذا صوت قنابل الطيارات . إنهم يضربون البلد ! لا بد من الهجرة غداً

فأجابها في صوت ضعيف مستكين :

— ليست هذه قنابل الطيارات

— فما تكون إذن ؟ لا بد من الهجرة غداً . . . غداً من الفجر بإذن الله . هل جننت حتى أعيش في هذا الجحيم ؟

— ليست هذه قنابل الطيارات . قلت لك إنها المدافع المضادة لها

— بل هي قنابل الطيارات

— ليست هي قنابل الطيارات

— بل هي قنابل الطيارات

— ليست ...

وشفع كلامه في هذه المرة بحركة صاحت على أثرها المرأة صياحاً منكراً ، وإذا بها معركة زوجية من الصنف الحاد

وطغا صوت المرأة على صوت أضخم للدافع وأقواها صوتاً

* * *

وكان الأستاذ كامل قد احتسى كأساً أو كأسين غير حاسب للنارات حساباً ؛ فلما فاجأه غارة الليلة وهو في نشوته اللذيذة هبط إلى الخبأ وهو يلعن الحرب ومن كان السبب في شبوبها

وهناك انتبذ ركناً قصياً واستسلم للتفكير

ولكنه لم يهنأ بجلسته طويلاً ، إذ صاح صبي من الصبية كان يجلس إلى جواره قائلاً :

— هنا رجل سكران يا ماما ... في الخبأ رجل سكران طينة ... إني أشم رائحة الخمر . وأيدته امرأة عجوز قائلة :

— إن رائحته كبرميل من الخمر الفنرة

وإذا بدردبيس أخرى تقول :

— إن وجوده بالخندق نجاسة !

فلم يسع كامل أفندي إلا أن ينفلت من مكانه في سكون تاركا القوم قبل أن يكشفوا أمره ... ومن يدري ماذا يفعلون به حينئذ ؟ !

وأقسم من تلك الليلة ألا يذوقها إلا نهاراً ...

* * *

في الخبأ عجائب لا تجتمع في مكان آخر ، وفيه مفارقات لا تخطر على بال

ها هنا رجل جبان رعديد ينتفض من الفزع ، بينما أخذت طفلة في الخامسة تشجعه وتهون الأمر عليه

وهناك فتاة عابثة تضحك من كل شيء ومن لا شيء

في الخبأ لمحات من الفكاهة الصافية الحلوة وصور عابسة من الألم المرير . وإذا كنت لم تر السعادة مرتسمة على وجه من الوجوه فتعال إلى الخبأ وانظر إلى وجوه الخارجين منه بعد انتهاء الغارة وكأنهم يبعثون !

أما إذا أردت أن ترى الهم في أتم صوره فانظر إلى ذلك الوالد وهو يجلس إلى جوار زوجته المريضة وقد حمل على يديه واحداً من أولادها بينما حملت هي آخر ، بينما جلس بينهما ثلاثة أو أربعة آخرون .

(السويس)

محمد محمود عرام

إلى مرضى المغناطيسية وإلى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتدريبات تملك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن الغلل والآلام الجسدية وفي تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسي والحصول على دبلوم في هذا الفن اكتب إلى الأستاذ أفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصري بشبرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما لوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً ..

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد .

٢٠ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس — عاداتهم

من العادات التي تراعيها طبقات الشعب أن تذهب العروس ظهر الأربعاء الأول أو بعيد الظهر ، أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم مساء الإثنين ، إلى الحمام في أبهة واحتفال[1] . ويسمى هذا زفة الحمام . فيتقدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع[2] . وكثيراً ما تنتهز الفرصة للاحتفال بختان الولد ؛ فيسير هذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها . وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج . ويوجد أيضاً سقاء يروي ظمأ السائرين ، ورجلان آخران يحمل أحدهما لفا من الساذجة أو المذهبة ، أو من الصيني مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر . ويحمل الآخر مبخرة من الفضة يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية ، ولكن يندر أن تسير الزفة بهذه الطريقة . وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات ، ينقد من اثنتين اثنتين ، وتلفهن الفتيات العذارى . ويلبس المتزوجات الملابس العادية ويتدثرن بالحبرة الحريرية السوداء ؛ أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال . ثم تلبسهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية قرمزية أو وردية ، أو صفراء ، أو ذات لونين معاً على هيئة خطوط عريضة . غالباً ما تكون وردية وصفراء . ويحمل المظلة من قوائمها الأربعة المعلق على كل منها منديل مطرز ، أربعة رجال . ويفتح صدر هذه المظلة . وتختفي العروس تحت ملابسها فتتدثر من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بشال كشمير أحمر ، أو نادراً بشال أبيض أو أصفر ، ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى يوضع عليه الشال فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها المهنة وحليها خلا قصة أو قصتين[1] . وحلي أخرى أحياناً من اللماس والزمرد تعلق على هذا الموضع من الشال الذي يغطي الجبهة . ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها ، وامرأة أخرى تروح عليها عند ما تشتد الحرارة بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود يزين أسفلها مرآة صغيرة . وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً تحت مظلة واحدة . وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض . وتتوجه إلى اليمين عند البدء في السير ؛ ويأتي في ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين اثنين أو ثلاثة . ويلاحظ أن السائرات في زفة العروس من الطبقة السفلى يزغردن كثيراً . ويزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة

(شكل ٤٦) زفة عرس « قسم أول »

وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل في الاستحمام واللعب وتناول الطعام . وكثيراً ما تستأجر العوالم (القيان) لتسلينهن في الحمام . ثم تعود

(١) وقد رأيت صورة هذه الزفة وأخرى صاحبتها لها بعد تسيير بعض ذلك الوقت بكثير وتعود بعد الغروب بساعة

(٢) ونوع الموسيقى على العموم يدانى ويتزيف عادة الطائفية

(١) أنظر وصفه هذه الحلى في الملحق

الزفة بالنظام نفسه . ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة ، إلا أن العريس يقيم المأدبة التي تعقب ذلك

وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها فتتناول مع رفيقاتها العشاء . وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو . وتدور أغانيهن على الحب والزواج . وبعد ذلك تعجن بعض الحناء وتضع العروس قطعة من العجين في يدها ، ثم تتناول (النقوط) من صديقاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة في تلك العجينة حتى لا يبقى موضعاً فيها ، فتنشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء ماء ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطها بالكتان حتى الصباح ، فتصبغ بلون أحمر برتقالي قاتم . وتستعمل للدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن . وتسمى هذه الليلة (ليلة الحنا)

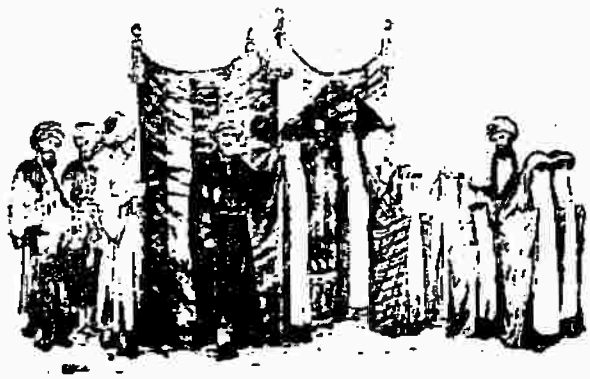

(شكل ٤٧) زفة عرس « قسم ثان »

ويقيم العريس الحفلة الكبرى في هذه الليلة ، وأحياناً في اليوم السابق . فيعرض (المهزوق) ألعابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً . وقد وصفت الألعاب الشائقة الأخرى التي تعرض على المدعوين لتسليتهم .

وتزف العروس إلى منزل عريسها في اليوم التالي . وتسمى هذه الزفة لأهميتها (زفة العروسة) . أما الزفة السابق وصفها فتسمى (زفة الحمام) لتميزها عن الأخيرة . وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلاً لمصاريف الاحتفال وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط . وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً . وتتناول العروس الطعام مع حاشيتها ثم تبدأ الزفة بعد الظهر ، فتسير ببطء وانتظام كزفة الحمام سيراً طويلاً خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ولو كان منزل العريس قريباً . وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة . وقد يتظاهر أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل ، أو يتضارب فلاحان بالنبوت أو بغيره . وترحب العائلات الموسرة بمن يجهد تسلية المتفرجين بحيلهم وألعابهم العجيبة أثناء زفة العروس ، وتقدم إليهم هدايا جميلة[1] . وحينما زوج السيد عمر نقيب الأشراف الذي كان الوسيلة الكبرى لبلوغ محمد علي ولاية مصر ، بنته منذ حوالي خمس وأربعين سنة سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة ، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة ولزم السرير عدة أيام قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه . وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفرجين ثم شد جرحه قبل أن يخرج السلاح بعضمة مناديل تشربت بالدم . وقد وصف لي هذه الألعاب شاهد عيان . وهناك مشهد أكثر غرابة وأشد إثارة للاشمئزاز لا يقل شيوعاً في هذه المناسبات عادة إلا أنه يندر أن يشاهد الآن[2] . وقد يعرض الحواء أيضاً حيلاً مختلفة إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعارك . وقد تعرض مثل هذه الألعاب في الاحتفال بختان ، وقد تسير في الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف الممارسة في العاصمة يمثلون أعمالهم العادية . ويوجد في إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقدمونها إلى المتفرجين أحياناً ، وفي عربة أخرى يجلس بعض الموسيقيين ، وفي عربة ثالثة بعض النوائم . وتركب العروس في مثل هذه الزفة عربة أوربية مقفلة ، ولكن كثيراً ما تركب العروس وقريباتها وصديقاتها

(١) وأكثر ما يشاهد في هذا الوقت الحبل الشاق الذي يقوم به سقاء يطلق عليه لقب (قيم) ، ليحصل على هدية ولقب زهيد . فيحمل قربة كبيرة تملأ رملا وماء أطول وقت دون أن يستريح بالقعود إلا إذا حبا . وقد شاهدت أخيراً في زفة عرس قيما يحمل قربة من الرمل والماء تزن أكثر من قنطارين ، ابتداء من غروب اليوم السابق قبل الزفة وأتمها حتى الغروب

(٢) وقد وصفه مبركهاردت وصفا صحيحا في كتابه «الأمثال العربية» (ص ١١٥ — ١١٦)

الجيد فوق البراذع المرتفعة ، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويتلوهن فرق أخرى فى نهاية الزفة

وتؤدب للعروس ورفيقاتها مأدبة عند بلوغهم منزل العريس ، وسرعان ما تنصرف الصديقات وتبقى أم العروس وأختها وحدها معها أو إحدى قريباتها الأخريات وامرأة أخرى تكون (البلانة) عادة ، وتمضى الليلة التالية (ليلة الدخلة)

ويبقى العريس فى الدور الأسفل ، ويذهب قبل الغروب إلى الحمام فيغير ملابسه وقد يغيرها فى المنزل ؛ وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقائه ينتظر قليلاً إلى قبيل الصلاة أو إلى هزيع من الليل ، ثم يذهب حينئذ — حسب العادة الشائعة — إلى أحد المساجد المشهورة مثل مسجد الحسين لإقامة الصلاة ؛ وتقام له بهذه المناسبة زفة إذا كان شاباً ، فيتوجه إلى المسجد مصحوباً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين ، وبصحبته بعض أصدقائه وحامل المشاعل : والمشعل عبارة عن عصا طويلة ينتهى طرفها الأعلى بإطار إسطوانى من الحديد يوضع فيه خشب مشتعل ؛ وقد يكون لها أكثر من وعاء واحد للنار (أنظر شكل ٤٨) ،

(شكل ٤٨) مشاعل

وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل ، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين . ويلبس العريس عادة قفطاناً ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ويتم بشال من الكشمير باللون نفسه ، ويمشى بين صديقين فى مثل ثيابه . وتقام الصلاة للاحتفال فقط ، وفى أكثر الأحيان لا يصلى العريس مطلقاً ، أو يصلى من غير وضوء مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفاً من سادتهم فقط[1] . وتعود الزفة من المسجد فى نظام أتم وأبهة أعظم وبطء شديد . وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه . ويتقدم الزفة — كما سبق — موسيقيون وحاملو مشاعل ، يتبعهم رجلان يحملان على كتفيهما إطاراً معلقاً فى مذراة يتدلى منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر مقسمة إلى أربع دوائر تعلو إحداها الأخرى ، ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حاملى الإطار أن يديرها من حين لآخر . ويثير لألاء هذه الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التى تمر فيها الزفة ، فتحدث تأثيراً جميلاً يستحق الاعتبار . ويتقدم العريس وأصحابه وغيرهم فى شكل حلقة مستطيلة مقفلة يمشون وفى يد كل منهم شمعة أو أكثر ، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور عدا العريس وصديقيه على كل جانب ، وهم يمشون فى مؤخر الحلقة التى تشمل عشرين شخصاً أو أكثر . وكثيراً ما يقف الموكب برهة يغنى أثناءها أحد رجال الحلقة أو صبيانها أنشودة العرس ، ويقف أثناء ذلك دق الطبول ونفخات الزمور الحادة التى تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر . وينتهى الموكب كما سبق بفرقة موسيقية ثانية

هذه هى الطريقة الشائعة فى زفة العريس . وهناك طريقة أخرى أكثر اعتباراً تسمى (زفة سادانى) يسير العريس فيها بين أصدقائه كالطريقة السابقة وبين حامل المشاعل دون الموسيقيين ، ويستخدم مكان هؤلاء رجال يسمون لاحترافهم الغناء فى مثل هذه الأوقات (ولاد ليالى) ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد . ثم يعود الموكب على مهل ويشرع المغنون فى الغناء أو إنشاد الموشحات فى مدح الرسول (صلعم) ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل ، ثم يقرأون جميعاً الفاتحة ، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات ويتناولون القهوة من العريس وأصدقائه

(يتبع) عبد الله طاهر نور

(١) ومن هنا سميت هذه الصلاة « صلاة مماليك » أو « صلاة المماليك »

برقـــة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

ما برقة تلك التي خلقتْ لنا ... شغلاً وشغلاً للهواجس في غد
تلك التي حمل ابن أوس همها ... في بارع بادي الجمال مخلد
(أصبا الأصائل إن برقة تنشد ... تشكو اختلافك بالهموم الغرّد)
أم برقة أخرى وكم من برقة ... أخفى تألقها اتساع الفدفد
قد كدت أنساها لطول تذكري ... فضلت حتى كدت ألاّ أهتدي
(يا جارة الوادي) ولست بجارة ... إن لم تردي عنه كيد المعتدي
ثأرُ السنوسيين لما ينسه ... أهل المروءة واللسان الأمجد
جبتْ عروبتنا عهوداً قبلها ... ومضت حفائظنا وراء المسجد
مضت الألوف من السنين بما حوت
مما حمدناه وما لم نحمد
والآن يقرئ بالسلام بينهم ... ويسارّهم أبناء دين محمد
ولقد شهدت وأدمعي منهلة ... أسراكمو، يا ليتني لم أشهد!
أتحالفون لغزو مصر عدوكم ... وعدوها وعدو أهل السؤدد
يا جارتا إن كنت غير مطيقة ... إدراك ثأرك فاغضبي وتمردي
أنا لا ألوم على المساوئ أهلها ... إن كنت لا تدرك فتجلدي
إني لأذكرها فأذكر شاعراً ... (ظن الظنون فبات غير موسد)

•••

ماذا شهدت؟ شهدت أمعج مشهد
فتيان رومةَ في القميص الأسود
وأظنهم لا ينزعون سوادهم ... لا بل يحلئ عليهمو بالمبرد
صدأ العقول كما الجسوم بلونه ... فشوا عراة مشية المتبلد
فرحوا بأسرهمو فدان الوفهم ... في موكب الأسرى لفرد أوحد
لا بل هو اعتادوا الذلة قبلها ... فبلادهم تعنو لرأي منفرد
متبجح جعل الصياح أداته ... فسما على أكتاف شعب مجهد
لا تطلبوا من خاضع حرية ... (صعب على الإنسان ما لم يعتد)
أمر الجنود بغزو مصر فأذعنوا ... وأتوا إلى مصر بغير تردد
لا فاتحين ولا غزاة وإنما ... أمروا فكانوا طوع أمر السيد
ووراءهم (عَرَبٌ) فوا أسفا لهم ... لِمَ يتبعون جيوش طاغ معتد؟
وإذا أردت عن الحروب نبوة ... فانظر إلى الجندي ماذا يرتدي
الفاتحون، ثيابهم ولحاهمو ... شهدت لهم بعقاب يوم مرصد
شعر أغصّ به فذلكمو أخي ... ولو أنه في نهجه لم يرشد
لو كنت من أبناء برقة ما خطت ... رجلي إلى مصر وسيفي في يدي
هيا ادخلوها راكعين وسجداً ... أتم بمصر عند أقدس معبد
لو يشهد «المختار» أسرى برقة ... لرثى لشعب في الهوان مبدد
سد يا حليف فكل فرد سيد ... لكن شعبك ما له من سيد
لا ندعي لك عصمة في موقف ... لا بل نقول لصاحب لا تبعد
طال الخلاف وما تزال بقية ... منه ولكنا كرام المحتد
خلق الوثائق والكتابة قومنا ... حرصاً على عهد لهم أو موعد
سادوا، وما سادوا بغير جدارة ... ما ساد إلا كل سامي المقصد

عبد اللطيف النشار

في مسابقة اللغة العربية — يصدر قريباً كتاب

«من شعر أبي تمام»

ويشمل المقرر في امتحان الترقية إلى الثانوي في النصوص من شعر أبي تمام والقصائد الخمس الأولى من المفضليات مضبوطاً ومشروحاً شرحاً وافياً ومعلقاً عليه بقلم:

محمد محمود رضوان

الثمن ١٠ ص ترسل لجسم المؤلف بمدرسة بني سويف الابتدائية الأميرية

« الرسالة »
فى عيدها العاشر

[مهداة إلى « الرسالة » الحبيبة وإلى أنطابها الثلاثة : الزيات والعقاد وزكى مبارك ...]

للأستاذ أحمد أحمد العجمى

حيَّ « الرِّسالةَ » واقبسْ مِنْ تحيَّاها
مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنِهَا أَوْ مِنْ تحيَّاتِها !!
رَفَّتْ عَلَى الشَّرْقِ أَنْدَى مِنْ أَزَاهِرِهِ
كأنَّ مِنْ نَفَحَاتِ الخُلْدِ رَيَّاهَا
وَأَشْرَقَتْ بِشُعَاعِ الفِكْرِ نَاضِرَةً
تَسْبِي القُلُوبَ وَتجرى فى حَنَايَاهَا
حَسْنَاءُ أَوْفَتْ عَلَى عَشْرٍ وَمِنْ عَجَبٍ
سِرُّ البريَّةِ لا يَعْدُو ثَنَايَاهَا
ترجو العيونُ إذا أَبْصَرْنَ نَضْرَتَهَا
لَوْ أَنَّهُنَّ شِفَاهٌ قَبَّلَتْ فَاهَا
مَضَى الزَّمانُ عَلَيْهَا وَهْىَ أُغْنِيَةٌ ... فَمُ الخلودِ ارْتَوَى مِنْهَا وَغَنَّاهَا
تختالُ بالفَنِّ والآدابِ مُتْرَعَةً ... كالنَّهرِ يضحكُ أعشاباً وأمواهَا
الفكرُ أدَّبها ، والعقلُ هَذَّبها ... والطبعُ حبَّبها ، والحُسْنُ جَلَّاهَا
والشرقُ مِن وِرْدِها رَيَّانُ مُقتبسٌ ... مِن نورِها مُستمدٌّ مِن سجاياهَا
تغدو عليه كأنفاسِ الربيعِ لما ... فى كل قلبٍ معانيها ونجواهَا
والحياةِ مجالٍ فى صحائفها ... كالنفسِ تزخرُ بالدنيا طواياهَا
لم يبقِ الكونُ سرٌّ بعد ما بعثتْ ... شُعاعَها في الدُّنى يجلو خفاياهَا

رسالةُ النيلِ لا يبغى بها بدلاً
وَهْىَ « الرسالة » و « الزياتُ » أَدَّاهَا
سَمَتْ إلى المجدِ والعَلْيَا وصاحبُها ... أوفى عَلَى الغايةِ القُصْوَى ووفَّاهَا

فى كلِّ لفظٍ من « الزياتِ » أغنيةٌ
السَّمْعُ يعشقها والفكرُ يهواهَا
والفنُّ فى أدبِ « الزياتِ » مَوْهِبَةٌ ... الحُسْنُ باكرَها والسحرُ غاداهَا
مازال يهتفُ بالفصحى ويكلؤُها ... حتى غدا وهوَ حاميها ومولاهَا

أما « زكىٌّ » فلاواللهِ ما خَلَقَتْ ... لهُ الطبيعةُ أنداداً وأشباهَا !
أهفو إليه كأنَّ النفسَ غارقةٌ ... فى حُبِّهِ ! وكأنَّ الحبَّ سَلْواهَا
حديثُهُ ذو شجونٍ سحرُها عجبٌ ... ما رادَها شاعرٌ إلا تمنَّاهَا
معنًى جميلٌ وأسلوبٌ له صِلةٌ ... بالموجِ فى البحرِ : هَدَّاراً وتيَّاهَا
لو أنَّ بالخُرِّ معنًى من سلاستهِ ... لباعتِ الناسُ بالأقداحِ دُنياهَا !

وسائلونى عن « العقادِ » إنَّ لهُ ... نَفْسًا تفيضُ المعانى من زَوَاياها
أَضْفَى منَ الكونِ تختالُ الحياةُ بها
بالشِّعرِ والحبِّ والدُّنيا ومغزاها
لهُ عَلَىَّ أيادٍ ليسَ يعرِفُها ! ... ولستُ أجهلُها بل لستُ أنساها
ديوانُهُ قِبلتى ألقى الحياةَ بها ... حَسْنَاءُ بالحُبِّ تلقانى وألقاها
مِرْآةُ نفسٍ جمالُ الكونِ رَفْرَفُها
وسِرُّ رُوحٍ لِسَانُ الدَّهْرِ نَاجَاهَا
أقسمتُ أنكَ يا عقادُ مُعْجِزَةٌ
حيَّاتَ يدرى ضميرُ الكونِ معناها
آمنتُ بالشعرِ يا عقادُ فى بَلَدٍ ... غَلَّ العَمَى مُقلتيْهَا ثمَّ غشَّاها
للجهلِ فيها دواوينٌ وأروقةٌ ... تدعى للمدارسِ حىَّ اللهُ مبناها !
آمنتُ بالشعرِ والدنيا تضيقُ به ... وطالما أضحكَ الدُّنيا وأبكاهَا
أنا ـ ويا ويحَ من تجنى عليه أنا ـ ... كزهرةِ الجبلِ العالى وريَّاها !
يضوعُ منها الشذى لكن يضيعُ سدى
مع الرياحِ وما تدرى بمأواها
حسبى من الدهرِ أنى أحيا بعاطفةٍ ... نماتها فى سبيلِ الشعرِ محياها !

(كوم النور) أحمد أحمد العجمى

ليـــلة عيد الميلاد

للكاتب الانجليزي « نيورورهو »

بقـــلم الأستاذ كامل يوسف

— ١ —

طلب الناس الهدنة من أحزانهم ليلة ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٧ وراحوا يحيون ذكرى ميلاد « المسيد المسيح » ، فأنيرت الثريات الملونة، وأوقدت شموع شجرة الميلاد في كل دار، ودفق الشراب في أجواف الناس ، حتى أصبحوا لا يشعرون إن كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤساً أم أثقالاً . وامتلأت البطون بأفخر المآكل ، حتى خيل إليهم إنها تكاد تنفجر من فرط ما استقر فيها ، وتلمس كل منهم فمن مخاصر إلى مراقص إلى مناج إلى مختلس للقبلات . كان الناس على هذه الحالة من المرح والسرور ، وهم يقولون في أنفسهم : « غداً سيكون الطوفان » فستحمل إليهم الأنباء ويلات الحرب التي نزلت بذويهم وفلذات أكبادهم ، وربما حملت إليهم هذه الأنباء ، وأشفق ذوو الأمر من تبليغها حرمة لهذا العيد المقدس .

في هذه الليلة تنبه شيطان من شياطين العالم الآخر على حركة مرح غير عادية في الكوكب الأرضي ، واستغرب صدور ذلك من سكان الأرض وقال في نفسه : « لعلهم لا يشعرون بما يجري من ويلات ! » ولم يدر سبب ذلك فلجأ إلى زميل من زملائه يعبر له عن عجزه عن إدراك السبب ، وكان بجوارهما مفستو فليس كبير الأبالسة ينصت إليهما فقال لهما في ابتسامة ساخرة : ألا تعلمون سر هذا المرح ؟ اليوم ذكرى ميلاد رب السلام ، فما أغبى الإنسان ! إنه ينسى مصائب الأجيال والأزمان ممثلة في الحرب الأوربية الآن ويهلل فرحاً بهذا العيد !

فلما سمع الشيطانان ذلك قال أحدهما للآخر : ما دام الأمر كذلك فدعنا نمزح ونضحك من الناس قليلاً هذه الليلة .

فأجابه الآخر : وأين نضحك وهنا مجال عملنا في الضحك والاستهزاء ، وأشار بيده إلى جهنم . فقال الأول : حقاً إنه لمجال ملء مسل ، وإنه لا يسرني شيء أكثر من ذلك الرجل الذي يقال له فيدياس فقد قيل عنه إنه أخرج أحسن دمية عرفها التاريخ ، ومن ذلك الرجل الذي يقال له « دافنشي » ، ومن ذلك الرجل العابس الذي كان يكره أمه كرهاً عميقاً وانفصل منها ثم جمعتهما المصادفة في موطننا العزيز أعني به «شوبنهور» . ليس يضحكني أكثر من هذه الشخصيات الغريبة التي تبددت في شخص امرأة جميلة ، رآها فيدياس فقال إنها أجمل مما صاغته يده ؛ ورآها دافنشي فاعترف بحقارة فنه تجاهها ؛ ورآها الرجل العابس شوبنهور فأقر بخطأ رأيه في المرأة وعادت العلاقات بسببها مع أمه ، تلك المرأة المتعذلقة ، ورآها لويس الرابع عشر فأمر مدام بمبادور أن تكون خادمتها ، واستحت كليوبطرة أن تظهر أمامها لئلا تفقد شهرتها التاريخية .

وكان هذا الشيطان مع حداثة عهده قديراً مبدعاً في مخاطراته ، وساخراً بارعاً في أفعاله ؛ وكان زميله ينصت إليه بشوق ولهفة ، فقال له وهو معجب : هيه يا بلزبول ! فاستمر الأول يقول : تصور هذا الجمع من الجانين تظهر في وسطهم حورية ! لقد كنت أتودد إلى كل واحد منهم على حدة حتى أدعه يثق بأنها أصبحت أسيرة هواه ، فإذا استقر هذا الرأي في ذهنه تحولت عنه إلى آخر ، ومثلت هذا الدور نفسه مع كل واحد ، وبذلك استفززت غيرتهم جميعاً فنشب بينهم الخصام . وسمعت شوبنهور يقول بعد ما قامى الخيبة : « محال أن أنزل من رأيي الذي ذكرته في المرأة . إنها الخادعة الماكرة » وسمعته ينادي نيتشه : تعال يا بني وهات معك سوطك لكي أتفاهم مع هذه المرأة المغرية » فقد ضحكت كثيراً من حركات هذا الفيلسوف العصبية . وددت لو صورت نفسي على مثال كليه لكي أمزح معه ، ولكني أشفقت على أعصابه . لقد كان يوماً جهلاً حقاً ظلمت فيه أبحث عنك لكي تشهد هذا الفصل المضحك فلم أجدك ، فأين كنت ؟

— كنت مشغولاً بدعاية من نوع دعايتك . فقد هيأت لنيرون أن يشعل النار في جهنم ليزيد في فنه ، فإذا اعتمد

لذلك ظهرتُ كالمارد فاستخزى وسكن جنونه . ولكني في الحق سئمت هذا المزاح وتاقت نفسي إلى شيء جديد .

فقال الشيطان الأول : وأنا كذلك أريد تجديداً .

ثم قال فرحاً كمن طرأ عليه خاطر جميل : دعنا نمرح ونسخر مع من في الأرض الليلة ؟

— وهو كذلك . إنها لفكرة حسنة . دعنا نضحك من ضحكهم هذه الليلة .

— ٣ —

في مساء تلك الليلة اجتمعت الجموع في كنيسة القديس بولس . وكانت الجموع حاشدة ، وقد اكتظت الكنيسة بالمصلين ، كل قد جاء يدعو الله أن يحفظ أهله من شرور هذه الحرب الطاحنة ؛ وكانت صلاة القداس يملؤها وقار وجلال لم يشهد من قبل ، وكانت قلوب المصلين تتجه إلى الذات العلية مخلصة صادقة في دعواتها وصلواتها ؛ وظل هذا الجلال والصمت لا يقطعهما غير صوت الكاهن وأغاني الشمامسة ونغمات الأرغن حتى أتى دور الدعوات ، فأخذ الكاهن يتضرع إلى المولى عز وجل أن يزيل الكروب ، وكان يجد من مساعدة الشعب له ما يجعلهم يرددون بصوت يرن صداه في قبة الكنيسة ومن أعماق القلوب « آمين يا رب . آمين يا رب » واستمر الكاهن في توسله يقول : « وامنع الحروب والبلاء والفناء وسيف الأعداء » ، وقد توجهت القلوب بجماتها إلى الذات الإلهية بإخلاص أن يكشف عن الإنسان ذلك الكابوس الثقيل الذي لم يقاس أفظع منه . ومن منهم لا يتوجه بإخلاص إلى الله بهذه الضراعة وكلهم منكوب إما في نفسه أو في ذوي قرباه ؟ لذلك كانت « آمين يا رب » تخرج من القلوب بحرارة صاعدة إلى عرش الملكوت في ذلة الضعيف يطلب صنيعاً من سيده .

في هذه اللحظة الرهيبة كان المستر بارمان يردد هذه الدعوات وهو يقول في دخيلة نفسه : « يا رب لا تسمع بإجابة هذه الضراعة لأن فيها خراب بل خراب أمتنا العزيزة » ، وكان الشيطان الكبير يرافق زميله الصغير في هذه الخفلة المقدسة . فلما سمعا المستر بارمان اقتربا منه وسمعا أمنيته فضحكا من هذه النزعة الإنسانية الكبيرة وأرادا أن يعبثا بالمستر بارمان فرغب الشيطان الكبير أن يهوي الرجل على الأرض ، وكان مجوزاً في السادسة والستين من عمره لا يقوى على الوقوف طويلاً أثناء القداس ؛ لذلك كان يستند على عصاه الآبنوسية ، وفي فترات السكون الشامل بين الضراعة والأخرى ، جاء الشيطان الكبير فزحزح العصا . فسقطت من يد الشيخ المجوز وأحدثت ضجة كبرى لفتت أنظار المصلين ، وانكفأ الشيخ على وجهه وكاد يسقط لولا أن تمالك نفسه ، ولما كان لا يقدر على الوقوف بدون العصا ، انحنى ليأتي بها ، ولكنه ما كاد يقبض عليها حتى خطر للشيطان الصغير أن يعبث به أيضاً فجذب العصا منه ثم تركها تهوي على الأرض فأحدثت مثل الضجة الأولى في فترة السكون ، ولكن المستر بارمان أحكم في المرة الثانية القبض عليها ووقف معتمداً إليها وهو يشعر بشيء من وخز الضمير علله بأنه نتيجة أمنياته التي تخالف أمنيات المصلين

والمستر بارمان من أغنياء الإنجليز وصاحب مصانع الذخيرة والأطعمة المحفوظة ، وهو مع ذلك من أقطاب السياسة وله نفوذ كبير في إدارة دفتها . لذلك لا تستغرب منه هذه الأمنيات السيئة ، إذ في إبطال الحرب ضياع ثروته التي جعلها في مواد سيكون مصيرها البوار . وهو ككل رجال السياسة يعبدون من تونى الصالح العام ، يوقعون الأمم في شباك الحروب للغنم الذي يعود عليهم أو لخطر وهمي في أذهانهم ، ويدفعون بملايين من أرواح البشر في سبيل هذه الغايات المجرمة . وكان من سوء حظ البشرية أن تعتقد في رجالها القداسة ، وكان المستر بارمان ككل سياسي يبرر موقفه الخزي بشتى العلل والنيات . لذلك كان يجيب على هذه الضراعات التي كانت تخرج من قلوب المصلين ومن صميم الإنسانية جماء ، بالتوسل للذات الإلهية ألا يجيبها لماذا ؟ لأن في إجابتها وانتقاء الحروب ضياعاً لثروة أمة عمثلة في ثروته تصبح بعدها في ذل الإفلاس والانحطاط المالي

انتهت الصلاة وخرج بارمان وهو ما زال يشعر بوخز ضميره ، وقصد النادي وخرج وراءه الشيطانان ، وقال أكبرهما : لنتبعه حيثما يذهب ، ولنجعل منه متعة لأنفسنا الليلة . « فما كاد يدخل ردهة النادي حتى سمع أصواتاً عالية كان أصحابها في مناقشة حادة ؛ فلما دخل القاعة وجد أعضاء النادي في صخب وجدل فسأل

صديقه المستر كونراد عن سر هذا الجدل ، فعلم منه أنهم يجادلون في عاصرة بلاد العدو . وهل هـذا العمل يكلف الحلفاء والإنجليز خاصة أكثر مما يربحون ، ولكن باترمان لم يكن صافي الذهن خلي البال حتى يدلي برأيه ، غير أنه سأل صديقه :

— وهل من جديد في الجو السياسي ؟

فأجابه : لا شيء غير ما تنقله إلينا التلغرافات الآن من أن البابا يناشد الدول المتحاربة وخاصة الحلفاء أن يكفوا عن القتال

وقد وجد باترمان مجالاً يخرج فيه عن صمته الذي لزمه منذ كان في الكنيسة فانفجر صائحاً :

— لقد ضايقنا هذا البابا بأمنياته ، فماذا يهمه من الحرب ؟ نحن الذين ضحينا بأبنائنا وأموالنا لنا الخيار في الكف عن الحرب أو الاستمرار فيها ؛ أما هو فماذا يهمه من الخسائر ؟ لقد انزوى هو ورجاله في معقل الفاتيكان ثم يريد أن يملي إرادته علينا . إن خير جواب على هـذا النداء أن نقابله بما قوبلت به نداءاته الأخرى بالإعراض والإغفال

فرد عليه صديقه المستر كونراد :

— أنت محق يا عزيزي باترمان . إن البابا لم تحترق يده في النار ليعرف ما هي النار . لذلك لا يمكنه أن يحكم على نزعاتنا ؛ وهو لم يناضل في هذا الميدان ؛ وهو وجنوده يسمنون من أكل أجود اللحوم وشرب أخر الأنبذة . مع فواصلة ألمانية تصيب أربعة منهم وهم يتزهون في قارب — أقول أربعة فقط لا ملايين كما فجئنا نحن — وعندئذ يحق لنا الأخذ برأيه ونقول إنه جرب الأسى والحزن مثلنا ، وعندئذ لا يملك أن يصب غضبه وغضب الإله الذي ينوب عنه على هؤلاء السفلة الألمان

وكانت هذه الإجابة قد أرضت سياسينا فكسرت من حدة غضبه ، واطمأنت ثائرة نفسه فقال — هو كذلك — : أوعز إلى الصحف المحافظة أن تستخف بنداء البابا ، ولندع الصحف الكنائسية تتلهى بهذا الحلم الخيالي الذي يبدو جهلاً لأربابها أعني به الصلح والسلام

— وهو كذلك

وانصرف باترمان وخرج من النادي بعد أن وقف على تطورات الحالة السياسية وتصدقه سيصل ، وكان الفندق غاصاً بالناس تلك الليلة يحيون فيه عيد الميلاد ، ودخل المستر باترمان الفندق وخطا في ردهته الطويلة فلفت نظره في نهايتها ما حرك اهتمامه ، فدرج نحو هذا الشيء وهو يقول في نفسه : « هل بعثت ؟ محال أن يكون ذلك ، فلسنا في عصر المعجزات ، إذن لا بد أن تكون قريبتها » ، وكلما اقترب ازداد يقيناً ، لأن ما يراه أمام ناظريه الآن ينبئ عن صلة القربى . فأمامه سيدتان كبراهما ذات جمال رائع وقامة كغصن البان ، وعيون هي موارد السحر ، وشعر هو الذهب الوهاج ، وسن في حدود الثلاثين ؛ والأخرى لا تقل عنها حسناً ، ولكنها أقصر قامة وأقل فتنة . وقد اقترب منهما باترمان وهو واثق من هذه القربى ، وشغل بالله بها فلم يع شيئاً غيرها . ولما وقع نظره عليها شعر بتجاوب العاطفة في نفس تلك السيدة ؛ فقد بدا على ثغرها ابتسامة جميلة فهم منها الشيخ معنى الرضا . ولما اقترب منهما رفع قبعته وانحنى وحياهما : « مساء الخير يا سيدتي ! عيد ميلاد سعيد »

فأحنت الكبيرة رأسها قليلاً بكبرياء ، وأجابت هي وشقيقتها الصغيرة : « مساء الخير يا سيدي ، عيد ميلاد سعيد » . ولم يكن للمستر باترمان غرضاً من قبل ، ولكن دفعه إلى هذه التحية وجه الشبه الذي رآه والذي أراد تحقيقه . لذلك لم يلبث أن فاجأها بهذا السؤال : « أليس سيدتاي من أسرة سوانسون » فأجابت الكبرى في رفق وعلى ثغرها ابتسامة سخرية : « كلا يا سيدي ، بل نحن من أسرة كلارك » . وكان ثغر الصغيرة يفتر عن ابتسامة خفيفة ، ولكن الشيخ لم يقنعه هذا الرد . وذهب إلى أنه لا بد أن يكون هناك صلة قديمة بين أسرة سوانسون وكلارك ، ولكنه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو في طريق كل إنسان يدخل أو يخرج من الفندق . لذلك دعاهما للجلوس معه فلم يرفضا ، وكانتا فرحتين طروبتين ، وقصدا مكاناً قصياً بعيداً عن ضوضاء الأحاديث وصخب الراقصين ، ودعاهما إلى الشراب فلم يرفضا ، وكانت علامات السرور بادية على محياهما ، كما كان الشيخ مسروراً لهذه العلاقة التي ذكرته بالماضي ... وكانوا كلما شربوا كثر ضحكهم وعلا صوتهم ، وكان الرائي يشاهد خصلتين من الشعر على خديهما كأنهما قرنان ، ولم يفطن

ذلك الشيخ الذي أعماه السرور ، وقد حق للشيخ أن يسر ، فقد وجد شبهاً قوياً بين السيدة الكبرى وبين زوجته ، كان قد أحب في شبابه فتاة من طبقة النبلاء كانت آية الجمال في عصرها ، ثم تزوجها بعد جهد جهيد ولم تنعم معه إلا عاماً ونصف عام ثم ماتت على أثر ولادتها الأولى . فقطع على نفسه عهداً منذ ذلك الحين أن يحفظ لها المودة ما دام حياً ، وقد بر بوعده ، وصرف عنايته إلى ابنه « جيمس » وغمره بحبه ، وجعل منه الذكرى الوحيدة لتلك الحبيبة الراحلة ... لذلك كان قرة عينه وحبة قلبه ، لا يألو جهداً في العناية بأمره — ولو كلفه ذلك كل ثروته — إخلاصاً لتلك الفتاة التي فتح لها قلبه لأول مرة ... وكان لجيمس تلك الطلعة الساحرة التي كانت لوالدته ، وتلك النبوة التي كانت في متوسط ذقنها ، فهو صورة منها ... كان الشيخ المهدم يرى فيها مطلع السحر ... فلما وقع نظره في تلك الليلة على هاتين السيدتين ، انتعشت روحه ، لأن حبيبته تعود للحياة ثانية ... واشد ما جذبته تلك الطلعة نحوها لتصور الماضي البعيد المملوء بالأحلام السعيدة ... ذكر كيف ظفر بحبيبته وتذوق السعادة لأول مرة في حياته ! ولكن الشقاء كان يدخر من هذه السعادة فلم يلبث أن انتزعها منه ... هذا الماضي البعيد يعود الآن ، وهو الذي جعله ينسى الحالة السياسية وما فيها من تطورات ومفاجآت ... كانت تشغل باله على الدوام ، وخاصة تلك الليلة . لقد اعتقد تلك الليلة بالبحث ، وكان يقول في نفسه : لماذا تجهل في حاضرها شخصيتها السابقة ... وقد كذب هذا الوهم ما رآه من مياها من أول نظرة إليه . . فهي هي إذن ، وسذاجتها في حديثها هي سذاجة حبيبته التي ورثها عنها ابنه « جيمس » مبعوده الثاني بعد أمه ، وكان يود تلك اللحظة لو يحضر جيمس ليشاهد طلعة أمه — أو على الأقل — ليشاهد طلعة نسخة منها ، ولكن « جيمس » في ميادين الحرب ، قد تملكته النزعة الامبراطورية فأبى أن يخلد إلى السكينة في الوقت الذي تصوب سهام العدو إلى هدم امبراطورية أجداده ، فتطوع في الحرب برغم كل المراقيل التي وضعها والده في سبيله ... ولكم كان يسر الشيخ إذا علم أن الفرقة التي ينتسب إليها ابنه قد حازت انتصاراً على العدو ، وكان يعتقد أن الظفر قد تم بفضل حذق ابنه ، وكان يكثر من ترديد ظفر الفرقة التي يحارب فيها ابنه أمام أصدقائه ، وكان يقول لهم : وإلى حذق ابني يرجع الفضل ... وكان عند التحاق ابنه بالجيش يخشى عليه عادية الردى ، ولكن بعد أن تدبر تاريخ حياته وما فيه من نكبات وفواجع ، استكثر على المقادير أن تختمها بفقده ، وأصبح يميل إلى اعتقاد أن المقادير رحيمة ، تكفر عما أصابته بهذه الحسنة ، وقد أغراه بهذا الوهم ما كان يصله من حين وآخر من سلامة ابنه من كل الأخطار ... !

في هذه اللحظة القدسية التي وجد فيها الشيخ نفسه بجوار حبيبته نسي العالم وما فيه من شرور ، وشعر بسمو روحه ولذة قدسية ، كأنها قد هبطت عليه من السماء ... وكان يزيد هذا الشعور الروحي في داخله كلما فتح عينه فرأى صورة زوجته وحبيبته ، أو هي بذاتها ... ولم يكن هذا الشعور من فعل الخمر ، فانه لم يكرع غير ثلاثة أكواب من الويسكي لم تحدث له أي جموح في الخيال ، بل هي على العكس قد زادت في انتباهه وذهبت بالغضب الذي كابده طول هذا اليوم

وكان حديث الشيخ عادياً ، أو قل كان مقطوعاً ، وهل في مثل هذه اللحظة يجري الحديث ؟ ... وكان معظم ما فاه به لا يخرج عن تعبيره عن غبطته وسروره وسعادته بتلك اللقيا ، وكانت الفتاتان لا تكلفان أنفسهما أكثر من الابتسامة رداً على تمنياته . وقد أحدث سروره نوعاً من الذهول جعله في غفلة عما يحيط به ؛ حتى إنه لم يشعر بوجود خادم الفندق بجواره يقدم إليه شيئاً في صحن ، حتى نبهته كبرى الفتاتين ، فالتفت إلى الوراء فوجد الخادم ، فقدم إليه برقية وقرأ على الغلاف : في خدمة صاحب الجلالة الملك ... ففهم أنها برقية حكومية ، وما كاد يفض الغلاف ويقرأ البرقية حتى أفق من نشوته ، وأظلمت الدنيا في وجهه ، وأغمي عليه ... فتناولت الفتاة الكبرى البرقية وقرأتها ؛ فإذا فيها :

« الملازم الأول « جيمس بارمان » أصابته رصاصة قضت عليه ... ! » (القيادة العامة)

وبعد أن عاد إلى حسه سمع صوتاً يردد : « يارب ، لا تسمح بإجابة هذه الضراعة ، لأن فيها خرابي ، بل خراب أمتنا العزيزة ! » وتلا ذلك ضحكات ملؤها السخرية والتهكم ... ففتح عينه ، فلم يجد مصدر هذا الصوت ، ولم يجد جليستيه ... ولكنه شعر بخفيف أشبه بخفيف الأجنحة أحدث تياراً شعر به !

فاضل يوسف

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)